بشير العوف

اشتراكيتهم وإسلامنا

مؤسسة الانتاج الطباعي
بيروت

اشتراكيتهم
و
إسلامنا

الطبعة الاولى

١٩٦٦

بسم الله الرحمن الرحيم

المدخل

شعارات رفع الظلم الاجتماعي !
في دعاوى الشيوعية، والاشتراكية، والعدالة الاجتماعية

لا نظن أن عصرا من العصور ، اختلطت فيه مفاهيم الاشتراكية ــ والشيوعية منها ــ مع العدالة الاجتماعية ، كهذا العصر ، الذي ارتفعت فيه الشعارات ، ضد الرأسمالية والاقطاع والرجعية وتحكم الطبقات .

ولئن كان التسلط الرأسمالي بشكله البشع في عهود التخلف والانحطاط قد أصبح محاربا عند جميع شعوب العالم ، لما يحمله من معاني الاستغلال والاستئثار والظلم الاجتماعي ، فان مما لا شك فيه ان الكثيرين من الناس ، قد انزلقوا ، عن حسن نية ، الى خضم الدعاوى المادية الملحدة ، التي تحارب الاديان والعقائد ، وتتنكر للمثل والاخلاق ، وتستهين بحق الانسان ، كفرد من مجموع ، له انسانيته وحريته وكرامته ، منساقين ، عن حسن نية أيضا ، وراء شعارات التقدمية البراقة ، ودعاوى رفع الظلم الاجتماعي عن بني الانسان .

الى هذا الفريق مـن الناس ، الذين آمنـوا بقدسية العدل الاجتماعي ، في أدق وأشمل معانيه ، نكتب هـذا البحث ، الذي نحـاول أن نكشف فيه ، عـن زيف بعض الشعارات ، التي تنادي بالتقدمية والانسانية والتحررية ، بينما تدل حقيقتها على أنها تسير في أغوار الرجعية والهمجية وتكريس العبودية .

نستطيع أن نحصر مذاهب العصر الحديث ، التي تدعو الى تحقيق العدل الاجتماعي باربع دعوات هي :

١ ـ الدعوة الى الاشتراكية الشيوعية .

٢ ـ الدعوة الى الاشتراكية الثورية .

٣ ـ الدعوة الى الاشتراكية الديمقراطية .

٤ ـ الدعوة الى العدالة الاجتماعية المؤمنة .

وحيث أن اختـلاف المفاهيم بين هـذه الدعـوات ، واختلاط بعضها ببعض ، وتلاحمها حينا ، وافتراقها حينـا آخر ، مع تشابه شعاراتها ، وتقارب بعض اهدافها ، قـد أدى الى فـوضى فكريـة عقائديـة ، اختلط فيها الغث بالسمين ، والحـق بالباطـل ، والغرض النبيـل بالغرض المشبوه ، كان لزاما علينا في هذا البحث ، أن تتناول كل دعوة من هذه الدعوات الاربع ، ببحثها تاريخيا وعقائـديا

وواقعيا ، وأن نعرض الى نقاط البناء او التخريب في كل منها ، مع تبيان نقاط التلاقي والافتراق بين كل دعوة ودعوة ، لكي نصل الى غرض اعطاء القارىء العربي ، فكرة موجزة واضحة ، عن حقيقة كل دعوة ، وعن مراميها القريبة والبعيدة ، كي يكون على بينة من الامر ، حين يستهويه شعار « رفع الظلم الاجتماعي » وكي يعرف كم من السموم الناقعة، قد دست على الشعوب العربية والاسلامية، وكم من مبادىء الهدم الخلقي والديني والانساني ، قد تسللت الينا عن طريق المذاهب الاجنبية الجديدة، وشعاراتها البراقة الزائفة ، مع أن لدينا نحن المسلمين ، المذهب الانساني الامثل ، الذي خلق نظاما اجتماعيا اقتصاديا راقيا، وطد فيه الصلة بين علائق المادة والروح ، وصان معاني القيم والمبادىء والاخلاق ، وحقق عدلا اجتماعيا مثاليا ، شهد له التاريخ ، على أنه كان صورة صادقة ، لارقى ما يتوق اليه الفكر الانساني من عدل وتقدم وفن وحضارة .

لهذا نتحدث في الفصول الآتية عن كل دعوة من الدعوات الاربع ، بايجاز واحاطة ، مقدمين نهذا ببحث تاريخي عن الشيوعية والاشتراكية منذ التاريخ القديم حتى القرن التاسع عشر وظهور معلم الشيوعية الاول كارل ماركس .

من اغوار التاريخ

الشيوعية والاشتراكية منذ التاريخ القديم

حتى القرن التاسع عشر وظهور كارل ماركس

من المعروف أن « الشيوعية » ليست مذهبا جديدا ابتدعه كارل ماركس ، ورفيقه الفريدريك انغلز، وانما هي ارهاصات أفكار ومحاولات اصلاحية او تخريبية بعيدة ، استطاع أن يصبها كارل ماركس ورفيقه في قوالب فكرية جديدة ، تسللت منها الى الانتشار والذيوع •

ويعتقد المؤرخون أن النزعة الشيوعية التي سماها كارل ماركس « الاشتراكية العلمية » تعود في أصولها الى اغوار الماضي البعيد ، الى القرن الخامس قبل الميلاد، حيث كان لها مجال البحث والمناقشة ، على عهد افلاطون ، الذي نجد في جمهوريته لمحة عن المثل الاشتراكية الخيالية كما ان السير توماس مور قد عالجها فياوائل القرن السادس عشر، وكذلك كان لها مثل هذه الجذور قبل الاسلام في بلاد فارس ، حيث ظهر « مزدك » عام ٤٨٧ م في مدينة نيسابور،

فنشر تعاليمه الاشتراكية ، وكان يقول : « ان الناس ولدوا سواءا ، فليعيشوا على قدم المساواة » • وكان يقول : « اهم ما تحبب فيه المساواة : المال والنساء • »

ويقول الشهرستاني عن « مزدك » ، « انه كان ينهي الناس عن المباغضة والاختلاف والقتال ، ولما كان مرد ذلك، النساء والاموال ، فقد أحل النساء ، واباح الاموال، وجعل الناس يشتركون في أموالهم ونسائهم ، اشتراكهم في الماء والهواء » •

وفي تاريخ الطبري ، وصف للحركة المزدكية يتلخص بما يلي :

« قال مزدك واصحابه : ان الله جعل الارزاق في الأرض ليقسمها العباد بينهم بالمساواة ، ولكن الناس تظالموا فيها ، وزعموا انهم يأخذون للفقراء من الاغنياء ، ويردون من المكثرين على المقلين ، وان من كان عنده فضل من الاموال والنساء والامتعة ، فليس هو بأولى به من غيره • ولقد ارتضى السفلة ذلك واغتنموه ــ هذا مايقوله الطبري ــ وكاتفوا مزدك واشياعه وشايعوهم ، فابتلي الناس بهم ، وقوي أمرهم ، حتى كانوا يدخلون على الرجل في داره ، فيغلبونه على منزله ونسائه وامواله • وكان مما أمر به مزدك الناس ، وزينه لهم ، وحثهم عليه ، التآسي

في أموالهم وأهلهم ، وذكر أن ذلك من السير الذي يرضاه الله ويثيب عليه أحسن الثواب ، وانه لو لم يكن الذي امرهم به وحثهم عليه من الدين ، لكان ... مكرمة في الفعال » .

وقد لوحظ أن لهذه التعاليم ، خصوصا ما له علاقة بالمساواة في الاموال ، صبغة اشتراكية ظاهرة . وقد اعتنق مذهب مزدك آلاف من الناس ، وكان قباذ كسرى الفرس قد ايده اول الامر ، ثم انصرف عنه ، وقتله هو واصحابه سنة ٥٢٣ ميلادية .

وحين ظهرت الفرق الاسلامية الباطنية ، في القرن الهجري الثالث ، ظهرت هذه النزعة الاشتراكية ، عند معظم هذه الفرق ، وكانت ابرز ما تكون عند « القرامطة » : وهم فرع من فروع الاسماعيلية ، اقتصرت حركتهم على العرب والانباط من سكان العراق وسورية والجزيرة العربية ، وامتازت بنزعتها « الاشتراكية » التي زعموا انها تحقيق للعدل والمساواة بين الناس .

ويعتقد المؤرخون أن حركة القرامطة « حركة ثورية اشتراكية » قادها « حمدان قرمط » في ضواحي واسط ، بين الكوفة والبصرة ، وهي منطقة خصبة للدعاوى الثورية، لان سكانها يتألفون من خليط من العرب والانباط والزنج

المستعبدين ، فأسس حمدان دارا سماهـا « دار الهجرة » يجتمع فيها أتباعه ، ويؤدون بعض الضرائب ، منها ضريبة زكاة الفطر تجبى للامام المحجوب ، وضريبة الهجرة لتأمين حاجات الدار ، وضريبة الخمس للاشتراك في عشاء «المحبة» اي في أكـل خبز الفردوس ، ولقـد انتهى الامر بأتبـاع حمدان ، الى أن جعلوا كل ما يملكون «مشاعا بين الجميع»، ولم يعد أحد يملك الا سيفه وسلاحه !

ولما رآى حمدان الاقبال على جمعيته قويا ، نظمهـا تنظيما دقيقا ، وراح يبث الدعـوة في الخارج ، فأوفـد « ذكرويه الدنداني » الى العراق ، وأبا سعيد الجنابي الى جنوبي العجم والبحرين ، ولم يكن حمدان وذكرويه وابـو سعيد سوى المنفذين لاوامر دعاة أعلى منهم مرتبة . هكذا يقولون . ولم يكونوا ليعرفوا باسمائهـم ، بل بالقـاب مستعارة ، كـ « صاحب الظهور » و « صاحب الناقـة » و « صاحب الخال » . وقد انشأوا « الخلايا السرية » في انحاء متعددة من بلاد الخلافة الاسلامية ، وأوقدوا ثورات كثيرة ، اهمهـا ثورة ذكرويـه في صحراء سوريـة عام (٢٨٨ هـ ـ ٩٠٠م) وثورة خراسان عام (٢٩٠ هـ ـ ٩٠٢م)، لكن الخليفة العباسي كان قويا فاخمدها كلهـا بالعنف ، وهمـدت الحركـة في العراق ، بعـد موت ذكرويه عـام (٢٩٤ هـ / ٩٠٦ م) .

أمـا في الاحساء والبحرين ، حيث كـان « صاحب الناقة » قد ارسل أبا سعيد الجنابي ، فصادفت الحركـة نجاحا قويا ، ولم يحل عام (٢٨٨ هـ ــ ٩٠٠ م) حتى كان ابو سعيد ، قـد استولى على تلك البلاد ، وجعـل منها « جمهورية شيوعية » وراح يهدد البصرة وبغداد •

وبعد موت ابي سعيد ، خلفه ابنه ابو طاهر سليمان ، وأخذ يزحف تارة على البصرة وبغداد ، وطورا على الحجاز والحرمين ، ويهـدد طرق الحج ، حتى عـم الذعر جميع أطراف الخلافة ، وفي عام (٣١٧ هـ ــ ٩٣٠ م) دخل ابـو طاهر مكة المكرمـة ، وأخـذ يقتل اهاليها ومـن فيها من الحجاج ، من رجال ونساء ، وهم متعلقون بالكعبة ، وردم بهم بئر زمزم ، وفرش بهم المسجد ، وقتل في سكك مكـة وشعابها من المغاربة واهل خراسان وغيرهم ، زهاء ثلاثـين ألفا ، وسبى من النساء والصبيان مثل ذلك ، ونهب جميع ما في مكة والمدينة من حلى وجواهر وكنوز • كما نهـب « الحجر الاسود » الذي ظل عشرين سنة بعيدا عن الكعبة، ولـم يرجع اليها الا بأمر من المنصـور الخليفة الفاطمي •

ويتحـدث « تاريخ الفلسفة العربية » عن العلاقـة المتينة ، التي تربط القرامطـة بالمذهب الاجتماعي لمـزدك وبابك • وكان هذا المذهب قائما على « شيوعية الملك » •

وقد كتب الرحالــة الفارسي « ناصر حسرو » الــدي زار الاحساء سنة (٤٤٥ هـ ــ ١٠٥٢ م) أن في الاحساء طواحين تخص الحكومة ، وهي تطحن للناس قمحهم مجانــا ، لان الحكومة نفسها تنقد الفعلة أُجورهم ، وتقوم بجميع نفقات الطواحين . وقال غيره : « ان كل شيء كان عندهم شائعــا الا السيوف » .

ولم يكتف القرامطة بشيوعية اقتصادية او اجتماعية ، بل جعلوها ايضا شيوعية الحادية ، على نفس المنهج الــذي سار عليه كارل ماركس وتلامذته بعد تسعة قرون من ظهور القرامطة ، فقد ثبت تاريخيا انه لم يكن للقرامطة دين ، او شعائر دينية . وقد اسلفنا أن أبا طاهر ضرب الكعبة ودك اركانها ، ليجهز على المسلمين الذين سماهم « كفرة وعبــدة احجار » وذكر ابن الجزار أن أحد اصحاب ابي طــاهر ، دخل بيت الله الحرام ، وصاح بالموجــودين فيه : « ايهــا الحمير ، انكم تسجــدون للحجارة ، وتطوفون حــولها ، وترقصون اكراما لها ، وتمسحون وجوهكم بها ، وفقهاؤكم الذين تتفقهون عليهم لا يعلمونكم شيئا خيرا من هذا ، فلم يبق لمحو هذه الخرافات الا هذه السيوف والسلام » .

ومع هذا فقد شهد الرحالة الفارسي ناصر خسرو ، كما شهد مؤرخون آخرون ، أن القرامطة كانوا متسامحين الى اقصى حدود التسامح ، فلا يمنعون أحدا من اقامة الصلاة،

أما هم فلا يقيمونها ، وهذا يدل على أنهم ارادوا أن يتسللوا الى قلـوب الناس عن طريق اثـارة الاحقاد الاقتصاديـة والاجتماعية فقط ، حتى اذا بلغوا ما يطمحون اليه من قوة وتسلط ، منعوا على الناس عباداتهم وهدموا مساجدهم ، كما فعل ابو طاهر في البيت الحرام ، وهذا ما يفعله اليوم وبالضبط ، دعاة الشيوعية والاشتراكية في العصر الحديث، مما سنأتي على تفصيله في هذا الكتاب .

وفي اوربة حيث كان التحكم الطبقي سائدا في أبشع صوره ، كما كان الاقطاع وسطوة رأس المال ، هما النظام الطبيعي المألوف لحياة البشر آنذاك . فقد راحت تتسلـل افكار الحرية والديمقراطية الى هنا وهناك من انحاء البلاد الاوربية ، كما راحت تعتمـل نقمة الحقـد ضد الملـوك والاشراف والنبلاء ورجال الكنيسة، لدى مجموعة الشعوب الاوربية ، فشبت الثورة الانكليزية بزعامة كromويل الذي حارب الجيوش الملكية وانشأ الجمهورية عام ١٦٤٨ م ، ثم قامت الثورة الانكليزيـة الثانية عام ١٦٨٨ التي كان مـن نتيجتها « اعلان الحقوق » وهو أساس الملكية الدستورية الانكليزيـة بتوجيههـا الديمقراطي ، وفاتحـة في الروح الديمقراطية ، التي انتشرت فيما بعد بانتشار روح الثورة الفرنسيـة ، التي نشبت في ١٤ تموز (يوليو) عام ١٧٨٩ ، وقبلها بخمس عشرة سنة ، قامت الثورة الامريكية المعروفة

بحرب الاستقلال التي قادها جورج واشنطن ، واهم حوادثها (اعلان الحقوق عام ١٧٧٤) واعلان الاستقلال عام ١٧٧٦ .

وغرقت أوربة في حمى انتفاضات ثورية فشب عدد من الثورات : في فرنسا عام ١٨٤٨ ، وفي المانيا عامي ١٨٤٨ و ١٨٥٠ ، وفي النمسا عامي ١٨٤٨ و ١٨٤٩ ، وفي المجر وايطاليا عام ١٨٤٨ ايضا .

عاش كارل ماركس هذه الحمى الثورية ، ونشأ في أحضانها وترعرع على دمائها وآلامها ، فقد ولد عام ١٨١٨ ومات عام ١٨٨٣ فعاش خمسة وسبعين عاما ، هي من صميم الانتفاضة الثورية الاوربية .

ولد ماركس في بلدة تريف (المانيا) لاب وام يهوديين غير أن والده تمذهب بالمسيحية البروتستانتية كي يتمكن من الاشتغال بالمحاماة . ودرس ماركس الحقوق ، وتخصص بدراسة الفلسفة والتاريخ ، وكاد أن يصبح استاذا ومدرسا للفلسفة ، لكن الحركة السياسية التي كانت تجتاح معظم البلاد الأوربية قد استهوته ، ودفعته الى طلب الطموح والشهرة . ولكنه لم يسر في ركب الحرية والديمقراطية الانسانية التي دعت اليها الحركات الثورية الاوربية ، بل راح يشتط ويتطرف ويخالف ، فترك مهنة التدريس ، وقام

على رئاسة تحرير جريدة « الغازيت الرينانية » التي كانت ذات اتجاه ديمقراطي ، فكان يهرب كثيرا من مقالاته الشديدة ، بالرغم من خضوع الجريدة لمراقبة حكومية ، مما حمل الحكومة على منع الجريدة عن الصدور عام ١٨٤٨ م .

انتقل كارل ماركس الى باريس وأخذ باصدار « النشرات السنوية الفرنسية الالمانية » حيث بدأ كتاباته الاشتراكية بنقد « فلسفة الحق » لهيغل . ولكن حكومة فرنسا طردته في السنة نفسها (١٨٤٨) من البلاد الفرنسية، فذهب الى بلجيكا وأنشأ جمعية للعمال الالمان في بروكسل، وحين بدأ نشاطه العملي انتسب الى « عصبة الشيوعيين » التي كانت تعمل سرا وأصبحت فيما بعد «الحزب الاشتراكي الديمقراطي الالماني » وعصبة الشيوعيين هذه ، هي اول حركة عمالية ، اعطت حركة العمال طابعها الاممي « يا عمال العالم اتحدوا » ، اذ كان ينتمي اليها اشخاص من مختلف القوميات ، وقد تم تحويل العصبة الى هذا الشكل ، بعد عقد مؤتمرين عهد فيهما الى كارل ماركس وفريدريك انغلز بتحرير « البيان الشيوعي » وهو ما يسمونه بـ«المانيفستو» او « انجيل كارل ماركس » او « الميثاق » .

وعلى أثر الاضطرابات في بلجيكا ، اوقفته الحكومة البلجيكية عن نشاطه ، فعاد الى فرنسا بعد استحصاله على

ترخيص بالعودة اليها ، غير انه لم يمكث فيها طويلا ، حيث سافر الى مدينة كولونيا في المانيا لتأييد وجهة نظر العمال ، والتسلل الى داخل الثورة الالمانية التي شبت عام ١٨٤٨م . والتي كانت تتلاقى مع ثورة اخرى شبت في فرنسا خلال العام نفسه ، ومن ثم انتقل الى انكلترا واستقر في لندن ، وفيها أسس « الاتحاد الاممي للشغيله » عام ١٨٦٤ وهو معروف بـ « الاممية الاولى » . وفي عام ١٨٦٦ اصدر المجلد الاول من كتابه « رأس المال » . أما المجلدان الاخران فقد صدرا بعد مماته باشراف رفيقه انغلز وله كتب اخرى في نظريات اقتصادية وتاريخية وفلسفية معروفة .

هذه هي خلاصة تاريخ حياة كارل ماركس ، معلم الشيوعية الاول ، وصاحب مدرسة « الاشتراكية العلمية » التي يعتبرها تلامذته وخلفاؤه ، اكبر مفاخره ، لانه بناها على نظريتين جديدتين ، الأولى نظريته القائلة بأن تاريخ المجتمع البشري ، هو ، الى يومنا هذا ، تاريخ نضال بين الطبقات سيؤدي حتما الى انهيار الرأسمالية ، وقيام الاشتراكية في مكانها ، والثانية : شرحه للعلاقة بين رأس المال والعمل ، بما سماه « فائض القيمة » او « القيمة الزائدة » .

واذا كان شرح هاتين النظريتين ، والتدليل على فسادهما ، وعلى عدم قيام اي برهان على نجاحهما ، بعد

مرور اكثر من مائة سنة على ظهورهما ، ليس من اختصاص بحثنا في هذا الكتاب ، فلا أقل من الاشارة الى أنه لم يقم اي دليل حتى الان على أن تاريخ المجتمع البشري هو تاريخ « نضال » بين الطبقات ، بل هنالك اكثر من دليل على انه تاريخ « تطور طبيعي » لنضال شامل « لا طبقي » يعتمد على مبدأي تنازع البقاء والبقاء للاصلح ، والبون شاسع بين النضال الذي اراده كارل ماركس ثوريا طبقيا من دون شك ، وبين التطور الطبيعي ، الذي يصل اليه الانسان عن طريق التشبث كما يصل اليه عن طريق العقل والمحبة ونمو المشاعر الانسانية ومفاهيمها الراقية .

واكبر دليل على ذلك يتلخص في الفشل المتتالي الذي منيت به نظريات كارل ماركس ، فهو قد تنبأ بأن الدولة الشيوعية الاممية نتيجة للنضال الطبقي ، ستتأسس على ايدي العمال في البلاد الالمانية ، وستنطلق منها الى بلاد اخرى ، ولكن نبوءته هذه لم تتحقق بل تحقق ــ مبدئيا ــ عكسها ، اذ أن الدولة الشيوعية الاولى تحققت في روسيا ، التي كانت أبعد ما تكون عن قبول الشيوعية في ذهن ماركس ، كما أن الذين قاموا بها ، لم يكونوا عمالا صناعيين ، كما توهم ، بل كانوا فلاحين زراعيين ، وهم الفلاحون الروس ، لا الفلاحون الألمان ايضا !

وكدليل آخر على فشل نبوءات ماركس ، آن الدولة

الشيوعية الاممية الاولى ، التي تأسست في روسيا عام ١٩١٧ لم تستطع أن تتجه في خطاها ، نحو توطيد « الاشتراكية العلمية » التي حلم بها كارل ماركس ، والتي اعتبرها هي البديل التاريخي الطبيعي للنظام الرأسمالي بل ان الواقع التاريخي المعاصر والماثل امام الابصار ، يشير الى أن خطى الدولة الشيوعية الاولى ، التي فرضت نفسها بقوة السلاح والثورة، واعتمدت أعنف انواع النضال الطبقي الدامي ، ما لبثت أن اتجهت نحو الابتعاد عن « الاشتراكية العلمية» بينما راحت هذه الدولة وهي «الاتحاد السوفياتي» تقترب شيئا فشيئا من انظمة التطور الطبيعي ، التي تحمل مناهج معتدلة تستهدف القضاء على التحكم والاقطاع واستغلال الانسان لاخيه الانسان .

وان من المعروف أن هذا الانكفاء عن الاشتراكية العلمية قد بدأ في مشروعات السنوات الخمسية المرحلية التي وضعها عهد لينين ، بعد اقتناعه باستحالة تطبيق النظريات الماركسية . واستمر هذا الانكفاء التدريجي ، حتى بلغ ما سمي في عهد ستالين بـ « التعايش السلمي » مع الانظمة الاخرى .

ولكن انحسار اشتراكية ماركس او شيوعيته ، قد ظهر بشكل اوضح على عهد خلفاء ستالين . وخصوصا على عهد خروشوف الذي كسر الكثير من الاطواق الحديدية

الماركسية • والتي كان آخرها ، تهديده بتمزيق بطاقته الشيوعية اذا استمر الفشل الزراعي في الاتحاد السوفيابي، يضاف الى هذا أن الخلاف العقائدي ، الذي شطر الجبهة الشيوعية العالمية الى شطرين ، والذي ادى الى احتدام الخلاف بين اكبر دولتين شيوعيتين في العالم ، هما الاتحاد السوفياتي والصين الشعبية ، لم يعد مجهولا من أحد ، وهذا مما سنأتي على تفصيله في مكانه المناسب من هذا الكتاب، حيث نقيم الدليل على ان الصراع الطبقي التاريخي، ما كان ولن يكون طريقا الى تحقيق الاشتراكية التي حلم بها كارل ماركس ، وأن اشتراكيته هذه لن يكون مصيرها افضل من مصير الاشتراكية التي انتشرت على عهد افلاطون وتوماس مور ، ولا خيرا من مصير اشتراكية مزدك وبابك، كما لن يكون مصيرها أحسن من اشتراكية حمدان قرمط وجمهوريته الشيوعية ، التي طواها الزمن ، واسدل عليها ثوب العفاء ، لانها كانت كشيوعية كارل ماركس وكاشتراكيته العلمية ، مخالفة للمبادىء والقيم والمثل والاخلاق التي ارتضاها الانسان عنوانا لاعلى درجات الرقي الانساني ، بينما كانت تعاليم ماركس الشيوعية والاشتراكية ، دعوة رجعية همجية ، تحصر سلطان الحكم في يد اقلية وتفرض حكم القوة على الشعب ، ثم تختص نفسها بالامتيازات كلها ، لتصبح « الطبقة الجديدة » •

الفصل الأول

الاشتراكية الشيوعية

الاشتراكية الشيوعية

تتخبط على انقاض ما هدمته من انظمة ومثل وعقائد وتعلن عن انهزامها الصريح امام التطبيق العملي

ان شعار « العدل الاجتماعي » هو شعار انساني مثالي • وهو أرقى ما توصل اليه الفكر الانساني ، عبر دهوره الطويلة حتى عصرنا الحاضر ، ولهذا السبب نرى جميع المذاهب الاجتماعية والاقتصادية الجديدة • ومنها « الشيوعية » • تحوم حول هذا الشعار ، وتلوذ باكنافه او تجعله هدفا وغاية ، لأن الانسان لم يستطع حتى الآن ، أن يرفع ما هو اسمى من هذا الشعار ، ولا أن يبتدع ما هو افضل منه ، ولهذا كان لزاما على الشيوعيين أن يجعلوا مبدأ العدالة الاجتماعية ، مرتكز الدعوة الى مذهبهم المادي الجديد ، مصطنعين له اسم « الاشتراكية العلمية » وأن ينطلقوا منه الى تحقيق أهدافهم القريبة والبعيدة ، التي تتصل ببناء الكيان الاجتماعي كله •

هنا يبرز سؤال واضح : هل يريد الشيوعيون فعلا تحقيق العدالة الاجتماعية بين افراد المجتمع الانساني ؟

يخطىء من يظن أن الشيوعية تستهدف هـذا الغرض الاجتماعي النبيل ، ولو كان هذا هو القصد • لاصبح جميع الناس شيوعيين •

ان الشيوعية تستهدف هدم الكيان الاجتماعي القائم على اختلاف اشكاله وألوانه، وعلى تباين اتجاهاته ونمادجه، هدما كليا ، يرمي الى تحطيم كل ما تعارف عليه البشـر ، او توصل اليه ، من نظم وافكار ومذاهب وعقائد ، بل هي أيضا تتعمد هـدم القيم والمبادىء والفضائل والاخـلاق ، زاعمة انها ستقيم بعد ذلك مجتمعا مثاليا جديدا ، تذوب فيه الطبقات والاجناس والعروق والقوميات ، وتسود فيه طبقة واحدة ، هي طبقة البروليتاريا ، اي طبقة العمال والفلاحين ذات الطابع الأممي ، الذي لا يكون فيه سيد ومسود ، ولا حاكم ومحكوم • •

الشيوعية اذن بحسب التفسير العلمي ، الذي يطلقه عليها اصحابها ، هي هدم وبناء ، هدم لكل ما توصل اليـه الانسان ، ثم بناء على انقاض ذلك الهدم !

فاذا علمنا أن عملية الهدم ، هدم أي شيء، هي عملية هينة وان الصعوبة كل الصعوبة ، هي في اشـادة البنيان وتثبيت قواعده ، ادركنا اي خطر جسيم ينتظر الانسانية ، فيما اذا استطاع الشيوعيون أن يهدموا كل شيء ، دون أن

يتمكنوا من بناء اي شيء ، فحينئذ ينهار الامل ، وتتحطم الاحلام و ... تقع الكارثة . وقد وقعت فعلا في عدة اقطار .

لهذا صعب على الكثيرين من العلماء والفلاسفة والمفكرين ، أن يؤمنوا بالآراء النظرية التي تخيلها كارل ماركس بوهمه ، والتي صاغها على الورق كنظريات مغرية، وهالهم ان يتركوا له الحبل على الغارب ، فهبوا يحاربونه ويحاربون مدرسته الفكرية والمذهبية ، خشية على الارث الانساني من ان ينحل ويتفكك وينهار ، ذلك لان « الفردوس الموعود » الذي تحدث عنه كارل ماركس وتلامذته ، قد يظل فردوسا موهوما ، وقد يظل نظريات خيالية ، محفوظة في متاحف الفكر او في بطون الكتب ، كأي حبر آخر ، على اي ورق آخر ، وحينئذ لا يفيد الانسانية في شيء ، أن يعلن الماركسيون عن فشلهم في تحقيق الاحلام الموعودة ، أو أن يعلنوا عجزهم عن تحويل النظريات الفكرية الى واقع مادي ، لأن الانسانية كلها ، هي التي تكون قد دفعت الثمن ، وهي التي يصعب عليها أن تستأنف بناء الكيان الانساني من جديد !

من هنا نشأت فكرة محاربة الشيوعية حربا شعواء ، لان أبسط معايير المنطق توجب على المرء أن لا يوافق على مبدأ الهدم ، الا اذا كان واثقا من حقيقة قيام البناء .

هذا من ناحية المظاهر الفكرية للمذهب الشيوعي ، أما من ناحية المحتوى والجوهر ، فهنالك ما هو أدهى وأمر وأخطر .

قد لا تكون الخشية من مبدأ الهدم ، خشية مقبولة او ذات خطر جسيم في نظر البعض ، ولكنها من دون شك، ستكون خطيرة جدا عند المؤمنين من البشر، عند العقائديين، عند الاخلاقيين ، عند الانسانيين ، الذين اقتنعوا ، بمثال او بدين او بعقيدة ، فجعلوا همهم ترسيخ أقدام هذا المثال، وصيانة مبادىء هذا الدين ، وتوطيد قواعد هذه العقيدة ، بل ان الكثيرين من هؤلاء قد جعلوا وجودهم كله ، وقفا على ما به يعتقدون ويؤمنون، بل ان فيهم من جعل التضحية بنفسه وماله وأهله وولده ، بذلا هينا في سبيل ايمانه ومعتقده .

ونحن في بلادنا العربية المؤمنة الممتدة من الخليج الى المحيط ، وفي عالمنا الاسلامي المترامي الاطراف ، في مختلف ارجاء المعمورة ، ما هو موقفنا من الشيوعية ؟ وهي تسمي نفسها كما قال كارل ماركس «الاشتراكية العلمية»؟ وما هو موقفنا من شعار العدل الاجتماعي الذي تتسلح به الشيوعية، والذي تزعم انه سيادة طبقة البروليتاريا بعد القضاء على جميع الطبقات الاخرى ؟

نحن – كمسلمين – نعتبر انفسنا بناة العدالة

الاجتماعية الاصلاء ، بل نحن المؤمنون بها أصدق الايمان ، ونحن خير دعاتها الواثقين ، ولكننا ضد الشيوعية ككل ، ضد نظرياتها ووسائلها ، ضد اهدافها الخفية ، ضد مراميها البعيـدة .

ولكي نكون واضحين صرحاء ، يجب علينا أن نقول : لماذا نقف ضد الشيوعية بهذه القوة وهذا الوضوح ؟

خير ما يحب أن نلجأ اليه ، هو الاعتماد على دساتير الشيوعية ، وعلى مبادئها المكتوبة والمنشورة ، وعلى ما قاله ويقوله فلاسفتها وزعماؤها وقادتها ، مستنبطا من كتبهم وصحفهم ومنشوراتهم ، ومن مصادر البحث التي وضعها الشيوعيون أنفسهم بين يدي العالم .

واذا كنا لا نريد في هذا الكتاب ، أن نتناول الشيوعية ككل ، لكي نحدد موقفنا منها بشكل مجمل ، فاننا نريد على الاقل ، أن نختار ثلاث نواح منها ، كي نأخذها بشيء من الايضاح والتحليل ، وكي نؤكد في النتيجة .

أن الشيوعية بالنسبة للمسلمين ، مرفوضة رفضا باتا ، مهما تسترت بشعارات العدل الاجتماعي ، أو تذويب الطبقات او القضاء عليها كلها ، عدا طبقة العمال والفلاحين ،

بل مهما تفننت في ابتداع الرسوم النظرية لأحلام «الفردوس الموعود » •• ومن خلال هذه النواحي الثلاث ، سيرى القارىء ــ المسلم ــ أن الشيوعية بالنسبة له مرفوضة جملة وتفصيلا •

الأمور الثلاثة ، التي نريد أن تتحدث عنها ، هي: الاخلاق،والاسرة،والدين •

وطبيعي أن للاخلاق في الدين الاسلامي أثرا اساسيا بارزا ، اوضحه محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، حين قال : « انما بعثت لاتمم مكارم الاخلاق » ، فجعل البعثة الاسلامية كلها أساسا في خدمة الاخلاق ، التي لم تكن اخلاقا جديدة ابتدعها الاسلام ، وانما كانت عصارة أديان سابقة ، وافكار متعاقبة ، واعراف متسامية ، صهرها الاسلام وتممها ، فكانت آيات رفيعة في الإرث الانساني الخالد •

فمما تعارفت عليه الانسانية وتوارثته ، ومما أقره الاسلام أو جاء به أو تممه ، مبادىء ومثل اخلاقية كثيرة ، لا يأتي عليها حصر أو عد ، فالصدق مثلا فضيلة يقابله الكذب وهو رذيلة • والأمانة نبل تقابلها الخيانة وهي حقارة • والعدل سمو يقابله الظلم وهو ضعة • والشرف علو تقابله السفالة وهي حطة ، والتعاطف انسانية يقابله الغدر وهو وحشية ، والحق كرامة يقابله الباطل وهو ذلة ••

هذا نذر يسير مما تعارفت عليه الانسانية من مثل وأخلاق ، وهي مثل يشرف فيها المرء ما دام متمسكا بها مهما كانت صفته الاجتماعية ، ويهون ويحتقر اذا حاد عنها مهما كانت سلطته أو قدرته ، وبالجملة هي مثل رفيعة جدا، لم يتوصل اليها الانسان الا عبر عهود طويلة سحيقة سادت فيها الوحشية والهمجية والتأخر ، ثم انتهت الى رقي انساني فاضل ، ما زال هو القدوة المثلى ، بالرغم مما يعتوره من اساءات ظاهرية يسببها أفراد او جماعات ، هم من غير شك ما زالوا دون المستوى الانساني المطلوب ، وهؤلاء غالبا ما دفعوا وحدهم ثمن الاساءة من أنفسهم .

أما المثل الاخلاقية الرفيعة ، فقد ظلت في مكانها المرموق يستظل بظلها الانسانيون الصادقون ، ويخلص بالتقرب اليها القادة والمصلحون ، ويكفي المتخلفين عن المستوى انهم يفقدون احترام الهيئة الاجتماعية ، بمعنى أن الفرد الكذوب ــ مثلا ــ لا يجد من يحترمه ولو كان متربعا على أعلى المناصب ، بينما يجد الفرد الصدوق كل احترام وتقدير مهما كان مركزه الاجتماعي صغيرا ، أفليس هذا دليلا واضحا على أن الركب الانساني العام يواصل سيره نحو استكمال عناصر التقدم والرقي ، وان عدم وصول البعض الى المستوى المطلوب لا يعني ابدا أن بلوغ مرتبة الكمال مستحيل .

أعود فأقول : هدا شيء من المثل الاخلاقية الرفيعة التي توصل اليها البشر . فما هو موقف الشيوعية منها ؟

يقول معلم الشيوعية الاول كارل ماركس ورفيقه انجلز في « البيان الشيوعي » ، اي « المانيفستو » ، الذي صدر عام ١٨٤٧ ، والذي يعتبر « انجيل الشيوعية الاول » ونقله الى العربية خالد بكداش ، في الصفحة ٢٨ ما يلي :

« وما القوانين ، والقواعد الاخلاقية، والاديان بالنسبة اليه – اي للبروليتاري – الا أوهام بورجوازية تتستر خلفها مصالح بورجوازية » .

وقال فريدريك انغلز عام ١٨٧٧ :

« اننا نرفض شتى المحاولات التي تحاول أن تفرض علينا أخلاقا تستند الى المثاليات . ذلك لاننا نؤمن أن الاخلاق هي نتاج الاوضاع الاجتماعية ، ولما كانت الاوضاع الاجتماعية متغيرة فان مفاهيم الاخلاق لا بد أن تتغير . ان الاخلاق التي نؤمن بها هي كل عمل يؤدي الى تحقيق انتصار مبادئنا مهما كان هذا العمل منافيا للاخلاق المعمول بها » .

فمن قولي ماركس وانغلز، نرى أن المبدأ «المكيافيلي»

المعروف « الغاية تبرر الوسيلة » قد ظهر الآن بأبشع صوره على لسان ماركس وانغلز، فاذا كان الكذب والخيانة والظلم، وعدم الشرف وفقدان التعاطف والكرامة ، سيؤدي الى تحقيق الشيوعية ، فلا مانع من أن يكون الشيوعي كاذبا او خائنا أو ظالما أو غير ذلك ، ما دام الهدف هو تحقيق الشيوعية !

وقد يظن القارىء أن هذا الاستنتاج ، استنتاج متطرف قاس او هو تفسير خاطىء مغرض ، ولهذا يجدر بنا أن نعود الى اقوال القادة الشيوعيين أنفسهم . لقد قال لينين عام ١٩١٠ :

« يجب على المناضل الشيوعي الحق ، أن يتمرس بشتى ضروب الخداع والغش والتضليل . فالكفاح من أجل الشيوعية يبارك كل وسيلة تحقق الشيوعية » .

وعاد لينين في مستهل عهد الثورة الشيوعية الى توكيد رأيه هذا في اخلاق الفرد الشيوعي فقال في عام ١٩١٨ ما نصه :

« اذا لم يكن المناضل الشيوعي قادرا على أن يغير أخلاقه وسلوكه وفقا للظروف مهما تطلب ذلك من كذب وتضليل وخداع ، فانه لن يكون مناضلا ثوريا حقيقيا » .

واستمر لينين في غرس بذور هذه المعاني في نفوس رفاقه الشيوعيين فقال في عام ١٩٢٠ •

« ان المناضل الشيوعي الثوري الحق ، هو ذلك الذي يبذل كل تضحية يفرضها عليه تحقيق الهدف الشيوعي ، ولو تطلب الأمر التضحية بالاخلاق والكرامة والضمير ، فالهدف المثالي الحق ، هو تحقيق المجتمع الشيوعي وتدعيمه » •

« يجب علينا ان نتوسل بكل انواع الحيل والمناورات والوسائل غير القانونية ، لتحقيق اهدافنا الشيوعية » •

وسار خلفاء لينين ، على نفس الطريق التي سار عليها لينين وانغلز وماركس ، فقد قال ستالين في عام ١٩٤١ :

« الاخلاق الصالحة في نظرنا هي تلك التي تيسر لنا القضاء على النظام القديم ، وهي تلك التي تدعم النظام الشيوعي ، ولا شيء غير هذا يمكن أن يسمى أخلاقا فاضلة » •

وفي ١٤ ايلول (سبتمبر) عام ١٩٤٦ قالت مجله « المدرسين » السوفيتيية :

« ان الافكار المتعلقة بالخير والشر والعدالة

والظلم ، تختلف عن النظريات المتعلقة بالاخلاق التـــي لا تتمشى مع اهـــدافنا .. فالاخـــلاق السوفييتية السليمة هـــي التي تحقق اهدافنـــا الشيوعية » .

وفي عام ١٩٥٢ قال مالينكوف :

« ان الاخلاق الفاضلة في نظرنا هي كل الوسائل التي تؤدي الى القضاء على النظـــام القديم ، بينما تؤدي في الوقت ذاته الى تدعيم النظام السوفياتي » .

هذه نماذج ، من المفاهيم الاخلاقية ، عند اساطـــين الشيوعية ، وواضح أن مذهبا اجتماعيا جديدا ، يريـــد أن ينطلق من هذه المرتكزات الواضحة ، لا يستطيع أن يجـــد لنفســـه أنصـــارا ، عند الاخـــلاقيين الذين آمنوا بالرقي الانساني ، وآمنوا معـــه بالتطلع دائما الى مـــا هو اسمى وأرقى ، تمشيا مع مبادىء تطور الفكر والنفس والشعور ، لا الى ما هو ادنى واقل ، أخذا بمبدأ السير الى الـــوراء ، وجدير بهم ان يرفضوا التقهقر نحو مهاوي الرذائل ، اذ لا يبعد أن يكون « الفردوس الموعود » كذبـــة كبرى ، او تضـــليلا مقصودا ، لطبقـــة العمال والفلاحين قبل غيرهـــا من الطبقات طالما أن الكذب والخداع والمكر ، هي العناوين

الواضحة لاسلوب العمل وطريق الغاية •

ان « الاخلاقيين » يرفضون الشيوعية ، لأن وسيلتها تتنافى مع رقي الفرد وكرامة الانسان !

***

نأتي بعد هذا ، الى الموضوع الثاني ، من الموضوعات الشيوعية الثلاثة التي اخترناها ، وهو موضوع الأسرة •

فمن المعروف ، أن المؤرخين وعلماء الاجتماع ، وفلاسفة مذاهب النشوء والارتقاء ، قد اتفقوا على أن الانسان في عهوده السحيقة كان يعيش عيشا وحشيا بهيميا، لا يختلف بشيء عما نشاهده الان من عيش الحيوان الاعجم • كان الانسان القديم يسكن المغاور والكهوف ، ويقتات بالنبات واللحوم أي بما يفترسه من حيوانات أضعف منه او أقل حيلة ، وكان الفرد البشري ، فردا مستقلا بكل ما في الفردية من معنى ، فلا يشعر بأي رباط يقوم بينه وبين اي فرد آخر ، وكذلك كانت العلاقات الجنسية بين الذكر والانثى ، أي مجرد لقاء عابر ، تفرضه طبيعة المحافظة على بقاء النوع ، دون أن يكون لهذا اللقاء ما بعده من ارتباط الوالد بالمولود ، أو معرفة حقيقة نسب الوالد بولده ، بل كانت البيئة البشرية ، بيئة حيوانية متوحشة •

وتطور الانسان ، وهو المخلوق الذكي ، تطورا

تدريجيا ، ونشأ وارتقى على سلم الحياة الصاعدة ، وشيئا فشيئا نما لديه الفكر ، واتسع عنده الشعور ، وانتقل بالتطور التدريجي البطيء من الشعور بفرديته الضيقة ، الى الشعور بمجتمعه الاوسع ، فتطورت علائق الذكر والانثى ، ونشأت طبيعة الترابط بين الاب والام والاولاد كأسرة صغيرة متحابة متعاونة ، مدت يدها الى الاسر القريبة ومنها الى الاسر المجاورة ، ومنها الى القبيلة ثم الى العشيرة ، ثم الى ما هو اوسع من ذلك حيث عملت الاديان السماوية والمذاهب الاجتماعية ، والأفكار المتطورة عملها المتصل عبر الدهور والاحقاب ، فكان من ذلك الرباط الزوجي المقدس ، وكان البناء الاسروي المحبب ، فسما مفهوم العلاقات الجنسية سموا رفيعا ، وتوطدت مفاهيم المعنى الانساني بين اعضاء الاسرة الصغيرة التي اصبحت نواة الاسرة الاكبر أي اسرة الوطن ، التي لا تعتبر نفسها الا لبنة في بناء الاسرة الانسانية .

تطور تدريجي طبيعي ، يحمل في ثناياه أبلغ مفاهيم الرقي الانساني الذي قامت على جوانبه مبادىء ومثل واعراف واخلاق لا يستطيع أحد أن يزعم أن هنالك حتى الان ما هو أقوم منها ، ويكفي للتدليل على سموها وقوتها وشمولها ، أن الفرد الذي يشذ عن مناهجها ، يفقد احترامه ومكانته ، بمعنى أن الرجل الذي يستهين بروابط الزوجية،

لا يستهين بها الا وجلا متسترا ، كما أن المرأة التي تشذ عن الطريق تسعى دائما الى نفي ذلك عن نفسها ، وهذا دليل علـى أن الركب الانسـاني يواصـل سيره نحو الاكمل والافضل ، بحيث يأتي يوم يكون فيه الخلق الفاضل ، هو شعار كل فرد في السر والعلن اي على عكس ما كان عليه الانسان القديم ، الذي كان يقوده خلقه الحيواني نحو اي عمل سرا كـان أو علانية ، ودون أن يلمع في ذهنـه اي اكتراث اجتماعي !

لا يستطيع أن ينكر اي منكر، أن الرباط العائلي الذي توصل اليه انسان القرن العشرين ، هو ــ على كل مايعتوره من نقائص ، وعلى كل ما نراه فيه مـن شذوذ بعض بنـي الانسان ــ هو ارقى ما توصل اليه العقل الانساني ، بعد الصقل الرفيع والتوجيه السديد الذي قادته فيه الاديـان السماوية والمذاهب الاخلاقية •

من هذه النقطة تتحتم ضـرورة الافتراق بيننا وبـين الشيوعية ، فالشيوعيـون وعلى رأسـهم كـارل ماركس وفريدريك أنغلز يعتقدون أن المجتمع كله ، وبدون استثناء، مجتمع بغي وفساد • وأن جميع الناس زناة بغاة، يتسترون بعضهم على بعض ، وليس بينهم فرد واحد فاضل ، ولهـذا يريدون ان يهدموا الاسرة هدما كاملا وأن يجعلوا المـرأة مشاعا بين الجميع، أي كما كانت فيعهود الوحشية الاولى،

وهذا لعمر الحق افتراض بشع ظالم ، لان عدم شمول الكمال الاخلاقي عند جميع بني الانسان ، لا يعني ابدا ، عدم وجود الفضائل الاخلاقية لدى القسم الاكبر من الناس، فبأي منطق، يعطي معلم الشيوعية الاول ، نفسه ، حق طرح هذا الافتراض ، وكيف يجوز له أن يبني على افتراضه الخاطىء ، منهجا أبلغ خطأ وأبشع أثرا ، أبسط ما يقال عنه انه يعود بالانسان الى عصور الهمجية الاولى ؟

استغفر الله ! انه منطق الماركسية وشريعة الشيوعية !

يقول فريدريك انغلز بصريح العبارة :

« ان التدبير المنزلي سيتحول الى صناعة اجتماعية ، فتنتقل العناية بالاطفال وتربيتهم الى الدولة ، وتصبح هذه من الاعمال العامة ، لان المجتمع هو الذي سيرعى أمرهم ، سواء كانوا اولادا شرعيين أم غير شرعيين ، وهذا من شأنه أن يزيل كل خوف من جهة النتائج . والخوف من النتائج هو أهم عامل أدبي ومادي يمنع الفتاة من أن تهب نفسها لمن تحبه » .

بهذه الصراحة ، وهذا الوضوح ، يطمئن فريدريك انغلز كل فتاة ، ويقول لها ان الدولة ستعتني بالاولاد سواء كانوا شرعيين أم غير شرعيين ، وأن عليها أن لا تخاف

شيئا ، وان تهب نفسها لمن تحب من الرجال !

أما المعلم ماركس فقد اعتبر اباحة النساء عند الشيوعيين « تهمة » ، ولكنه لم يكلف نفسه عناء نفيها ، بل أقرها بصراحة ونجد هذا واضحا في «البيان الشيوعي» لماركس وانغلز حيث جاء في الصفحة ٤٨ ما يلي بالنص :

« لشد ما يضحكنا هذا الذعر فوق الاخلاقي الذي توحيه الى البورجوازيين اشاعة النساء الرسمية ، التي يزعمون أن الشيوعيين يدعون اليها .

ليست بالشيوعيين حاجة الى ادخال اشاعة النساء، فهي تقريبا كانت دائما موجودة، فلا يكتفي البورجوازيون بان يكون تحت تصرفهم نساء البروليتاريين وبناتهم — هذا عدا البغاء الرسمي — بل يجدون لذة خاصة في اغواء بعضهم لنساء بعض ! » .

وهكذا نرى أن ماركس يفترض أن اشاعة النساء البروليتاريات والبورجوازيات موجودة عند الجميع، وينسى انه بهذه التهمة يطعن البروليتاريين — اي العمال والفلاحين — الذين يزعم انه يدافع عنهم ويعمل من أجلهم ، كما يطعن البورجوازيين سواءا بسواء ، اذ من المعروف لدى معظم

شعوب الارض « أن الحرة تموت ولا تأكل بثدييها » ، وأن القلة النادرة من نساء الارض هي التي تحرر نفسها من الروابط الدينية والخلقية والاجتماعية ، فمن الظلم الكبير لكل الطبقات - وخصوصا لطبقة البروليتاريا - ان يتهمها ماركس بانها تضع نساءها وبناتها تحت تصرف البورجوازيين .

وحين يريد ماركس أن يبدد التهمة ، يكتفي بأن يعلن أن الشيوعيين يريدون ابدال اشاعة النساء المستترة بالرياء . باشاعة رسمية صريحة ، فيقول أيضا في الصفحة ٤٨ من البيان الشيوعي :

« ليس الزواج البورجوازي في الحقيقة والواقع سوى اشاعة النساء المتزوجات . فقصارى ما يمكن أن يتهم به الشيوعيون اذن ، هو انهم يريدون ابدال اشاعة النساء المستترة بالرياء ، والمغطاة بالمداجاة ، باشاعة رسمية صريحة ! » .

وهكذا « افترض » ماركس ، أن زواج البورجوازيين هو اشاعة لنسائهم فيما بينهم ، و « افترض » أيضا أن البروليتاريين يضعون نساءهم وبناتهم تحت تصرف البورجوازيين ، فاعتبر الاتهام الموجه للشيوعيين اتهاما هينا، لانه يبدل الاشاعة المستترة بالاشاعة الرسمية ، لكنه عاد

فاستدرك في الصفحة نفسها، وقال: انمحو نظام الانتاج الحالي يؤدي الى محو اشاعة النساء ، ولك وحدك ايها القارىء ، أن تحلل وتدرس كي تصل الى اكتشاف سر العلاقة القائمة بين نظام الانتاج الصناعي ونظام اشاعة النساء !

لكن الشيء الذي يسر ، أن نظرية ماركس هذه ، حول المرأة ، كانت فاشلة فشلا ذريعا كاكثر نظرياته ، بدليل أن تجربة الشيوعيين كما جاء في كتاب « الشيوعية والاسلام » للتعاليم الماركسية بشأن البيت والاسرة ، قد اثبتت خطأها الجسيم ، ولقد طبق الروس عقب الثورة البلشفية هذه التعاليم النظرية باصدار تشريعات تحل الروابط الزوجية المعقودة في الكنيسة ، وبتيسير الطلاق ما أمكن ، وبالتشجيع على الاجهاض والتخلص من الحمل ، لكن هذه التجربة لم تلبث أن ادت الى حالة بشعة ، اعترفت فيها الصحف الروسية ، وأمسى فيها عدد الاجنة الميتة بسبب الاجهاض يفوق عدد المواليد ولهذا أبطلوا العمل بهذا التشريع ـ في ظل الثورة الشيوعية نفسها ـ وشرعوا في تنظيم حملات يدعون فيها الى الزواج الثابت ، والى الاكثار من البنين . وظهر بجلاء أن الاخذ بهذه النظرية ، قد وضع على الرف الى حين في الاتحاد السوفياتي ، وذلك كمظهر من مظاهر السياسة الشيوعية الجديدة ، التي تقوم على مراعاة الظروف ومقتضيات الاحوال .

ولا نريد أن نحكم على مصير الاسـرة كلها ، مـن خـلال النظرة الشيوعية للمرأة والرجل ولمفهـوم الزواج ولعلاقة الوالد بالمولود والمولود بالوالد ، بل نترك ذلـك للنصوص الرسميةالشيوعية فنرى لينين يقول فيعام ١٩٢٢:

« نحن لا نؤمن بالافكار المثالية عن الاسرة فهذه الافكار المثالية تنادي بجعل الاسرة مجتمعا ذا كيان خاص لـه استقلاله . ونحن لا نؤمـن بمثل هذه المثالية التي تشجع على جعل الوطن مجموعة من الاسرات المستقلة . ان الاسرة في نظرنا ليست سوى افراد مستقلين نحدد لكـل فرد منهم دوره في المجتمع » .

وفي عام ١٩٢٨ قال ستالين :

« دعـوني اذكر لكم بصراحة ، انه مـن الخطر على حياتنا السياسية تشجيع ذلك المفهوم الخاطىء للاسرة ، واقصد بذلك الآراء القائلـة بأن هناك مـا يسمى الولاء للاسرة ، فالـولاء الوحيد ، المسموح بـه في مجتمعنا هو الولاء للدولـة » .

واضاف ستالين يقول في عام ١٩٣٠ :

« ما دمنا ننكر الاديان فاننا لا نستطيع أن نأخذ بالآراء القائلة بان للاسرة قداسة ... فكل القداسات زائفة ، ونحن لا نريد أن يكون للاسرة ، أي نوع من انواع القداسة ، مثلما لا نريد أن يصبح الولاء العائلي ، عائقا يحول دون تحقيق اهدافنا » .

مرة أخرى ، الغاية هي الهدف ، والهدف هو تحقيق الشيوعية ، ومن أجل هذا الهدف يقول ستالين : كل القداسات زائفة ، قداسة الاسرة ، قداسة الزواج ، قداسة الابوة والبنوة ، وهذا هو نفس ما قاله لينين وانغلز وماركس في تعريفهم بالشيوعية !

ان « الانسانيين » يرفضون الشيوعية ايضا ، لان وسيلتها تتنافى مع كرامة الانسان ، كرامة المرأة والرجل والولد .

***

أما الموضوع الثالث الذي اخترناه ، وهو موضوع « الدين » ورأي الشيوعية فيه ، فاننا لا نرى هنالك حاجة لاطالة البحث فيه ، لان الالحاد الشيوعي أصبح معروفا على كل شفة ولسان ، ولان محاربة جميع الاديان كعقيدة الحادية ، بالنسبة للمذهب الشيوعي أمر مفروغ منه، ولكن مبدأ « التقية » في موضوع الدين — لا يزال هو السائد —

اذ أن الكثيرين من أنصار الشيوعية راحوا يروجون بـان السلطة الشيوعية لا تمنع المتدينين من ممارسة عقائدهم الدينية ، ويستدلـون على ذلك بالرعاية التي استأنفتها سلطات الاتحاد السوفياتي خلال السنوات الاخيرة الماضية للكنيسة الارثوذكسية متناسين المبادىء الشيوعية الاساسية التي توجب على الشيوعيين أن يراعوا الظروف التي يمرون بها ، وأن يكيفوا اوضاعهم بحسب مقتضاها ، وأن يتخلوا عن مبادىء الصدق والامانـة والفضائل الانسانية ، من أجل جعل ذلك كله جسرا يعبرون عليه الى تحقيق الشيوعية.

لقد قال لينين سنة ١٩٠٢ : « كلما تحررنا من نفـوذ الدين ازددنا اقترابا من الواقع الاشتراكي . ولهذا يجـب علينا أن نحرر عقولنا من خرافة الدين » .

وقال في مناسبة اخرى : « الدين هو افيون الشعوب، فالدين ورجل الدين يخدران اعصاب المظلومين والفقراء ، ويجعلانهم يرضخون للظلم » .

وحرص لينين في اكثر من مناسبة على الدعـوة الى الالحاد بطرق سرية خفية فقال عام ١٩٠٥ : « لماذا لا نعلن في برامجنا اننا ملحدون ؟ اننا نفعـل ذلك لكي لا نـزود خصومنا بسلاح يهاجموننا به ، فعدد المؤمنين بالله لا يزال يفوق عدد الملحدين » . غير أن معلمه ماركس قال في البيان

الشيوعي بصراحة : « ان القوانين والقواعد الاخلاقية والدين ليست سوى اوهام » .

وبعد قيام الثورة الشيوعية ، وتسلمها زمام الحكم في الاتحاد السوفييتي خرج لينين عن مبدأ السرية والخفية، فقال في عام ١٩٢٧ ما يلي :

« اننا نقوم بالدعوة ضد الدين الآن لاننا أقوى من ان ينال خصومنا منا عن طريق التشهير بالحادنا ، ولقد كنا نحرص في الماضي على عدم اعلان الحادنا لأننا لم نكن اقوياء . أما الآن ، فاننا نعلن بصراحة اننا ملحدون ، واننا نرى في الاديان خطرا على الحضارة الانسانية ، فالاديان أفيون مخدر » .

وسار ستالين على غرار سلفه لينين فقال في عام ١٩٤٤:

« نحن ملحدون ... ونحن نؤمن بأن فكرة الله خرافة . ونحن نؤمن بأن الايمان بالدين يعرقل تقدمنا . ونحن لا نريد أن نجعل الدين مسيطرا علينا ، لاننا لا نريد أن نكون سكارى ! » .

وهكذا نرى أن موضوع الالحاد عند الشيوعيين موضوع واضح ، وهو ليس كما يروج انصار الشيوعية

من ان الشيوعيين لا يمنعون المتدينين من ممارسة عقائدهم، بل العكس هو الصحيح لان لينين قد سبق الى القول : « ان حزبنا لا يستطيع أن يقف موقفا سلبيا من الدين ... فالدين خرافة وجهل » .

ومعنى هذا أن على الشيوعيين أن يكونوا «ايجابيين» في محاربة الدين ، ولكن مع مراعاة الظروف المناسبة ، كما علمهم لينين من قبل وفضلا عن هذا . فان لينين قد اتهم المؤمنين بانهم جهلاء وعجزة فقال في عام ١٩١٣ :

« ليس صحيحا أن الله هو الذي ينظم الأكوان ... وانما الصحيح ، هو أن الله فكرة خرافية اختلقها الانسان ليبرر عجزه ، ولهذا فان كل شخص يدافع عن فكرة الله ، انما هو شخص جاهل عاجز » .

واستمر الشيوعيون في محاربة الاديان علنا حينما أنسوا من انفسهم بعض القوة فقد جاء في مجلة «الشباب» السوفياتية في عددها الصادر في ١٨ (اكتوبر) سنة ١٩٤٧ : « نحن لا نستطيع أن نقف من الدين موقفا محايدا » . أما جريدة « البرافدا » فقد قالت في عدد ٢٦ نيسان (ابريل) سنة ١٩٤٩ : « نحن نؤمن بثلاثة اشياء : كارل ماركس ولينين وستالين ، ولا نؤمن بثلاثة اشياء : الله . والدين . والملكية الخاصة » .

من هنا نرى أن مــا يزعمه الشيوعيون من انهــم لا يمنعون المتدينين من ممارسة عقائدهم الدينية غير صحيح • وأن ما نراه الآن من الاطــلاق الجزئي لنشاط الكنيســة الاورثوذكسية ، ليس سوى تغطية عابرة للظروف التي تمر بها الشيوعية العالمية ، وسيجــد القارىء أنباء مثيرة عــن الفظائع التي ارتكبها الشيوعيون ضد المسلمين وضد جميع المؤمنين في بلاد الصين الشيوعية والاتحاد السوفياتي ودول اوربــة الشرقية في كتــاب مستقــل يصــدر بعد هــذا الكتاب •

وعلى هذا نرى أن المؤمنين بالله يرفضون الشيوعيــة رفضا باتا ، كما رفضها « الاخلاقيون » و « الانسانيون » الذين تحدثنا عنهم خلال شرح بحوث الاخــلاق والاسرة والدين •

***

بعد هذه الالمامة السريعــة بأخطر مضامين المــذهب الشيوعي ومــا يشتمل عليه من اصرار على هدم العقائــد والمثل والمبادىء والاخلاق ، نحب أن ننتقل الى الهــدف الشيوعي الاخير ، الذي سيصل بالشيوعيين الى فردوسهم الموعــود ، لنرى مــا اذا كانت مسيرتهــم الاقتصاديــة والاجتماعية ستؤدي بهم ، ولو الى تحقيق جزء ضئيل من هدفهم المنشود • أم سيظلون سائرين على تخبطهم الــذي

استمر في الاتحاد السوفياتي زهاء خمسين عاما ، دون الوصول الى نتيجة مقبولة .

وحين نقول هذا القول ، لا نرسله جذافا وعلى علاته، بل نستند فيه الى الخلافات العقائدية التي نشأت بين الدولتين الشيوعيين الكبيرتين : الصين الشيوعية . والاتحاد السوفياتي ، والى ما تبادلاه من تهم كثيرة ، وصف فيها الزعماء الشيوعيون بعضهم بعضا بأنهم يتنكرون للمذهب الماركسي ، ويكفرون في تفسير انجيله ، ويضربون عرض الحائط بتعاليم انغلز ولينين !

هكذا قال الصينيون والسوفياتيون بعضهم عن بعض. وهم قد شهدوا بأنفسهم على أنفسهم ، وأقروا بأن ماتخيله ماركس وانغلز لم يستطع أن يطبقه أحد .

ان الشيوعية بمفهومها العلمي ، ليس لها وجود اليوم على أي أرض ، وبالرغم من المحاولات التي قام بها زعماء الثورة الشيوعية الاولى ، منذ عام ١٩١٧ حتى الان وابتداء من لينين وستالين وخلفائهما في روسية ، وسيرا مع ماوتسي تونغ وهوشي مينه وتيتو في آسية واوربة ، نقول بالرغم من المحاولات التي بذلها هؤلاء جميعا ، فان الدلائل تقوم تلو بعضها بعضا على أن التخيلات الماركسية كانت وهما واضحا أمام محاولات البناء ، وحتى أن

مشروعات الخطط الخمسية التي لجأ اليها الاتحاد السوفياتي عقب ثورة عام ١٩١٧ • كانت تنتهي كلها الى الفشل ، سواء في الاقتصاد او في الصناعة او في الزراعة، بل ان كل خطة خمسية جديدة ، كانت تبعد بالاتحاد السوفياتي فرسخا عن المبادىء الماركسية الشيوعية ، لتقربه بالمقابل فرسخا آخر ، نحو انظمة العالم الاخر •

وقد لا يكون غريبا عن ذهن القارىء ما صنعه الاتحاد السوفياتي خلال السنوات العشر الماضية ، وخصوصا في عهد نيكيتا خروشوف ، ومن تربع مكانه على مناصب القيادة السوفياتية حيث لمست شعوب العالم انفتاح الشيوعيين الروس على العالم ، وابتعادهم المتتابع عن مبادىء الشيوعية التي لم يستطع أن يطبقها أحد •

الشيء الوحيد الذي يعتبر قائما من الشيوعية ، هو « الاسم » والاسم فقط ، فالاتحاد السوفياتي يسمي نفسه دولة شيوعية ، والصين الشعبية تسمي نفسها شيوعية ، وهناك ما لا يقل عن عشرين دولة اخرى موزعة في مختلف القارات وتسمي نفسها شيوعية، الا أن هذه الدول جميعها، قد اصطنعت لنفسها كلها انظمة داخلية مختلفة لا نستطيع أن نجد لها سوى اسم واحد يجمعها كلها ، ألا وهو « الاشتراكية » • فالاشتراكية على اتساع التعريف المعطى لها ، وعلى اختلاف الانظمة الاقتصادية والاجتماعية التي

تطبقها الدول التي تسمي نفسها اشتراكية ، وعلى اختلاف البحوث الفكرية ، حول الاشتراكية ، تستطيع ان تستوعب من يسمون أنفسهم « شيوعيين » • وعلى هذا فاننا لانرى في الدول الشيوعية القائمة حاليا ، سوى دولا اشتراكية ، اي كتلك الدول الاشتراكية التي جمعتها شعارات ومظاهر متشابهة ، وفرقتها انظمة داخلية متباينة •

هذا ومن المعروف في الاصل أن للشيوعية مبادىء ومرتكزات اساسية ، لا يتسنى للشيوعيين أن يسموا أنفسهم شيوعيين بدونها • من هذا مثلا ، تحقيق مبدأ « تسويد الطبقة المختارة » اي طبقة العمال والفلاحين : « البروليتاريا » • وهذا ليس له وجود في جميع الدول الشيوعية • اذ أنالنظام الطبقي لايزال موجودا على اشكال واعراف مختلفة في جميع الدول الشيوعية ، مع ان ماركس قد حتم على ان يكون في الشيوعية مجتمع لا طبقي ، كما أن الغاء « الملكية الخاصة » او الملكية الفردية هو القاعدة الاولى في البناء الشيوعي ، وقد لوحظ أن الاتحاد السوفياتي قد ألغى الملكية الخاصة ، ولكنه اضطر أخيرا الى عودة جزئية عنها اذ سمح بتملك المسكن مع توريثه (١)

(١) ظهر هذا في آخر تعديللدستور الاتحاد السوفييتي في النسخة المطبوعة في موسكو سنة ١٩٤١ ، والمترجمة الى اللغة العربية سنة ١٩٤٣ •

كما أن احتكار الانتاج واخضاعه لهيمنة النظام المركـزي المرسوم قد بدأ بالتفكك داخل الاتحاد السوفياتي ، الذي لجأ أخيرا الى منح الحرية للمصانع كي تنتج ما تراه ملائما مع حاجات السوق ، ولو كان بعيدا كل البعد عـن خطط النظام المركزي .

والشيوعيـة لا تعترف بالنقـود كواسطة للتبـادل والحصول على السلع لان لكل فرد شيوعي أن يحصل على ما يلزمه من المخازن العامة بموجب بطاقات عمل . وهـذا ليس له وجود حتى الان في جميع البلدان التي تسمي نفسها شيوعيـة ، حتى أن روسيا حاولت أن تطبق الغاء مبـدأ التعامل النقدي عقب الثورة الشيوعية عام ١٩١٧ بقيـادة لينين ، ولكنها فشلت في تجربتها فشلا ذريعـا ، ورأت أن من المستحيل تنفيذ نظام الاستغناء عن النقد . فعادت عـن خطتها هذه عام ١٩٢٢ . وما زالت الدول الشيوعية ، سائرة على الطـرق التي تبعد بهـا تدريجيا عن حقيقة المذهـب الشيوعي .

وهذا ما دفعنا الى القول بانه لا يوجد الآن اية دولة مـن دول العالم تطبق النظـام الشيوعي ، وانما يطبـق الشيوعيون الحـاليون أنظمة هي اشبه مـا تكون بانظمة « الاشتراكية الثورية » التي اصبحت منتشرة في كثير من بلاد العالم ، اذ كيف يمكن أن تكون الشيوعية « شيوعية »

مع وجود نظام ضرائبي ثقيل ؟ » فمن المعروف أن الضرائب المباشرة على الافراد السوفياتيين ، هي ضرائب محدودة ، غير أن الالتزامات الأخرى ، التي يجب الوفاء بها ، كثيرة لا تعد . فشراء سندات الدولة فرض الزامي على كل فرد ، كما أن الضرائب التي تفرض لصالح الاتحاد ، لا يستطيع أن يتهرب منها انسان . وان القارىء ليأخذه العجب من هذا النظام الذي تستولي فيه الدولة على وسائل الانتاج ، وتصادر فيه الملكيات الخاصة ، ثم تفرض على كل مواطن أن يعمل في مصنع او حقل لقاء أجر مقطوع مقرر ، ثم تدور على هذا الأجر ، فتقتطع منه الضرائب المفروضة ، ثم تسمي نظامها بعد هذا كله نظاما شيوعيا .

ان النظام الشيوعي لا يمكن أن يكون قائما على نظام ضرائبي . ولكننا نرى الضرائب في الاتحاد السوفياتي ، تخفض من دخل الفرد تخفيضا جوهريا ، يضاف الى هذا أن الضريبة الباهظة المفروضة على المبيعات (وهي التي تفرض على جميع الدخول) تزيد من اثمان السلع التي يشتريها العامل زيادة كبيرة ، تبلغ سبعين في المئة أو اكثر من ذلك ، من قيمة السلعة ، كما أن ضريبة الدخل المفروضة على معدل مستوى الاجور الصناعية (من ٧٠٠ الى ٨٠٠ روبل في الشهر) هي خمسة في المئة على الخمسماية روبل الاولى ، وعشرة في المئة على ما يزيد عن ذلك .

والاغرب من هذا ، ان حوالي نصف القــوة العمالية في الاتحاد السوفياتي ، بما في ذلك خمسة وثلاثون مليون عامل زراعي تقريبا ليسوا مشمولين بنظام التأمين الاجتماعي.

وقد جاء في تقرير نشرته صحيفة «انترناشيونال رفيو» أن العامل السوفييتي لا يتمتع بأي مزايا في حالة مرضــه اثناء الشهور الستة الاولى من توظيفه ، ولا يدفع له المبلغ بالكامل الا بعد أن يكون قد اشتغل لمدة عشر سنوات في نفس المكان .

أما الاشخاص الذين يشملهم التأمــين الاجتماعي ، فقصتهم اعجب من ذلك، لانه لا يحق للرجل أن يتمتع بمزايا نظام التقاعد (الاحالة على المعاش) الا في سن الستــين ، بشرط أن يكون قــد عمل بصورة متواصلة مــدة خمس وعشرين سنة . أمــا المرأة فتحصل على مخصصاتهــا في المعاش عندما تبلغ الخامسة والخمسين من عمرها ، بشــرط أن تكون قد اشتغلت بصورة متواصلة مدة عشرين عامــا ، وهكذا نرى أن نظام التأمين في دولة روسيا الشيوعيــة ، يمثل سلاحا في يد الدولة لارغام العمال والعاملات علــى استمرار العمل في نفس الوظيفة ، مدة خمسة وعشرين عاما بالنسبة للرجل ، وعشرين عاما بالنسبة للمرأة .

ثم ان الشيوعية نظام غير طبقي ، لانهــم يزعمون أن الناس يتساوون فيه بكل شيء ، لكن الواقع السوفياتــي

اثبت أن الطبقة المختارة الآن ، ليست طبقة العمال ، وانما هي طبقة موظفي الحزب الشيوعي ، ورجال الادارة وغيرهم من الافراد الذين يتمتعون بحظوة عند الدولة . حتى أن المنتجعات ودور الاستراحة « المصايف » لا يستطيع العمال أن يصلوا اليها الا بدفع اثمان باهظة لا تساعدهم عليها ميزانياتهم الضئيلة، أما الاستفادة من هذه الاماكن بالمجان، فلا يسمح بها الا لحوالي واحد بالمئة من العمال في العام الواحد ، عدا الطبقة ذات الحظوة طبعا ، طبقة موظفي الحزب الشيوعي !

أين هي الشيوعية اذن ؟ وأين هو الفردوس الموعود ؟

خلاصة القول : ان « الشيوعية » مرفوضة من حيث مناهجها الاساسية لانها ـ كما قلنا ـ هدامة للاديان والفضائل والمثل والاخلاق ، ثم هي مرفوضة من حيث نظمها الاقتصادية والاجتماعية ، لانها كانت نظما خيالية نظرية ، لم تستطع أن تواجه التطبيق العملي ، في اي بلد شيوعي ، وهذا ما جعل « الفردوس الموعود » الذي أغرى به كارل ماركس جماهير العمال والفلاحين ، حلما ضائعا لا يغذيه أمل ، ولا يطمع بالوصول اليه امرؤ عاقل .

الشي الوحيد الذي بقي لكارل ماركس ورفيقه فريدريك انغلز انهما استطاعا أن يدسا الكثير من آرائهما

الاقتصادية والاجتماعية المعروفة بـ « الاشتراكية العلمية » على الكثيرين من دعاة الاشتراكية في العالم ، وخصوصا اصحاب « الاشتراكية الثورية » ، فهؤلاء بالرغم من تنصلهم الرسمي من المذهب الشيوعي ، وبالرغم مما يزعمونه من ابتعاد عن الماركسية واللينينية ، فانهم قد غرقوا في بحران ماركس وانغلز ولينين ، واخذوا معظم قواعدهم الاقتصادية ، عن ميثاقهم وتعاليمهم ومنشوراتهم ، ولهذا لا يمكن تسميتهم الا بأنهم الصورة الخلفية للماركسية الشيوعية ، وهذا ما سنشرحه في الفصل القادم .

الفصل الثاني

الاشتراكية الثورية

الاشتراكية الثورية

امتصاص واسع للنظريات الشيوعية الماركسية وبراعة في محاولات التغطية التطبيقية

حين نصف « الاشتراكية الثورية » بأنها الصورة الخلفية للماركسية الشيوعية ، نكون مستندين في هذا ، الى تعاليم كارل ماركس وخلفائه المذهبيين من جهة ، والى ما يعتمده الاشتراكيون الثوريون من مبادىء ومناهج وخطط ، من جهة أُخرى .

ففي الصفحة ٥١ من « البيان الشيوعي » ، أي « المانيفستو » ، الذي اصدره كارل ماركس وفريدريك انغلز وجعلوه انجيلا للشيوعيين . نجد فيه ما يلي بالنص :

ان المرحلة الاولى في ثورة العمال هي كما رأينا :

آ ــ تشييد « البروليتاريا » في طبقة سائدة .

ب ــ الاستيلاء على الديمقراطية « اي

السلطة الشعبية او حكم الشعب بالشعب » •

ج ـ استخدام البروليتاريا سيادتها السياسية ، لاجل انتزاع رأس المال من البورجوازية شيئا فشيئا •

د ـ مركزة جميع ادوات الانتاج في ايدي الدولة اي في ايدي البروليتاريا المنظمة في طبقة حاكمة •

هـ ـ زيادة كمية القوى المنتجة وانماؤها باسرع ما يمكن ، ولا يتم ذلك طبعا في بادىء الامر ، الا بخرق حق التملك ونظام الانتاج البورجوازي بالشدة والعنف، أي باتخاذ تدابير قد تتراءى من الوجهة الاقتصادية غير كافية ولا مأمونة البقاء ، ولكنها تتعاظم وتتجاوز نفسها بنفسها خلال الحركة ، وتكون ضرورية لا غنى عنها كوسيلة لقلب اسلوب الانتاج بأسره •

هذا ما جاء بالنص في كتاب « البيان الشيوعي » • فلو طبقنا هذه المبادىء على ما يصنعه الاشتراكيون الثوريون ، لوجدنا الحقيقة ناصعة ، في أن هؤلاء ليسوا في حقيقتهم سوى منفذين لما اوحى به كارل ماركس وخلفاؤه •

فكل ثورة اشتراكية ، قامت في أي بلد من بلاد العالم ، بما في ذلك بلدان الامة العربية ، قد سارت جهارا على طريق هذه المبادىء بمنتهى الدقة والوضوح .

وبلغة اصرح وأدق : كل ثورة اشتراكية ظهرت الى عالم الوجود ، قد قالت بصراحة انها «ثورة عمال وفلاحين» أي انها تهدف الى تسويد طبقة العمال التي سماها ماركس « بروليتاريا » وهو تماما ما ذكرناه آنفا في الفقرة « آ » من البيان الشيوعي .

وكل ثورة اشتراكية ظهرت الى عالم الوجود ، رأيناها أيضا قد طبقت الفقرة « ب » مما نقلناه عن البيان الشيوعي، اي انها استولت على الديمقراطية التي هي حكم الشعب بالشعب ، واقامت مكانها حكما بوليسيا او ديكتاتوريا او عسكريا ، وهذا ما عناه تماما ماركس بالاستيلاء على الديمقراطية .

وكل ثورة اشتراكية ظهرت الى عالم الوجود ، قد طبقت أيضا الفقرة « ج » من البيان الشيوعي المذكور ، اذ انها فرضت السيادة السياسية على الشعب باسم العمال والفلاحين ، وسارعت الى انتزاع رأس المال من المواطنين شيئا فشيئا، وما عمليات التأميم المتلاحقة للمصانع والمصارف والشركات التجارية ، الا تفسير لكلمتي « شيئا فشيئا »

الواردتين في بيان ماركس ، كما ان مصادرة الاراضي الزراعية ، بما يسمونه « قوانين الاصلاح الزراعي » هي انتزاع ايضا لرأس المال ، على نفس الطريقة التي ارادها ماركس أي « شيئا فشيئا » .

وكل ثورة اشتراكية ظهرت الى عالم الوجود ، قد مركزت ايضا ادوات الانتاج في أيدي الدولة ، عن طريق تأميم المصانع والمزارع والمؤسسات الكبيرة ، وهذا هو تماما ما جاء في الفقرة « د » من البيان الشيوعي ، الذي دعا بصراحة الى مركزة هذه الادوات بيد الدولة ، اي طبقة البروليتاريا المنظمة في طبقة حاكمة .

وكل ثورة اشتراكية ظهرت الى عالم الوجود ، قد سارعت الى خرق حقوق التملك ، وخرق انظمة الانتاج ، طبقا لما دعا اليه ماركس في الفقرة « هـ » من بيانه الشيوعي ، بل انها تقيدت ، حتى بأسلوب « الشدة والعنف » الذي اراده ماركس ، فلم تهادن او ترحم ، او تعطف على اصحاب الأراضي او اسهم الشركات أو مالكي المصانع ، الا ضمن الحدود التي تهيء لها فرصة الاستيلاء على البقية الباقية من اراض او أموال أو مصانع أو اسهم.

ولا نتس انها مع هذا الخرق العنيف لحق التملك ونظام الانتاج ، قد عملت على التقيد بالتوجيه الماركسي ،

الذي دعا في هذه الفقرة نفسها ، الى « زيادة كمية القوى المنتجة وانمائها بالسرعة الممكنة » ، بالرغم من ان هذا الانصراف الى زيادة القوى المنتجة ، قد نشر الفقر والمجاعة والحاجة الى الرغيف والى المواد الغذائية في اكثر بلاد الثورية الاشتراكية • وكأني بقادة الحركات الثورية الاشتراكية قد اطمأنوا الى تخديرات كارل ماركس ، فاشتدوا في غلوائهم، واصروا على الاستمرار في اخطائهم، ولم يفكر واحد منهم بالعودة عن اخطائه ، بل لمس ولمسوا جميعا فشل الكثير من تدابيرهم المختلفة في حقول الاقتصاد او الاجتماع ، ومع ذلك اصروا على عنادهم وثابروا على اخطائهم ـ كل ذلك ـ لان كارل ماركس قد قال لهم في هذه الفقرة نفسها : « أن التدابير التي يتراءى لهم انها غير كافية ولا مأمونة البقاء ، ستتعاظم ، وستتجاوز نفسها بنفسها خلال الحركة ، وتكون ضرورية لا غنى عنها كوسيلة لقلب اسلوب الانتاج بأسره » •

لا يستطيع دعاة الثورية الاشتراكية ، أن يتبرأوا من المذهب الشيوعي ، لانهم اثبتوا في حقيقة اعمالهم وتصرفاتهم ، انهم اوفياء لتعاليم كارل ماركس ، اكثر مما وفى له دعاة الشيوعية المذهبية ، كما برهنوا على أنهم قدروا على الوصول الى المواقع التي عجز عن الوصول اليها، كل من تسمى علنا باسم « الشيوعية » ، مما يؤكد ان

الحركة الثورية الاشتراكية ، لن تقع في نهاية المطاف الا في أحضان الشيوعية الماركسية •

ولكي نعرف مدى اندفاع دعاة الحركات الثورية الاشتراكية في سيرهم على طريق الشيوعية الحقيقية ، يجب علينا ان نتابع قراءة ما كتبه ماركس وانغلز في الصفحتين (٥١ و ٥٢) من « البيان الشيوعي » • قائلا :

وتختلف هذه التدابير طبعا ، اختلافا كبيرا في مختلف الاقطار غير انه يمكن تطبيق التدابير التالية ، بصورة عامة ، في اكثر البلاد تقدما ورقيا :

١ ــ نزع ملكية الارض الكبرى ، وتخصيص الريع العقاري لتغطية نفقات الدولة•

٢ ــ فرض ضرائب متصاعدة جدا •

٣ ــ الغاء الوراثة •

٤ ــ مصادرة املاك جميع المهاجرين والعصاة والمتمردين •

٥ ــ مركزة القروض كلها في ايدي الدولة بواسطة مصرف وطني رأسماله للدولة ويتمتع باحتكار تام مطلق •

٦ ـ مركزة جميع وسائل النقل في ايدي الدولـة .

٧ ـ تكثير المصـانع الوطنيـة وادوات الانتاج ، واصلاح الاراضي البور ، وتحسـين الاراضي المزروعة حسب منهاج عام .

٨ ـ جعل العمل اجباريا للجميع ، وتنظيم جيوش صناعية ، وذلك لاجل الزراعـة علـى الخصوص .

٩ ـ التوفيق بين العمل الزراعي والصناعي، واتخاذ التدابير المؤدية تدريجيا الى محو الفرق بين المدينة والريف .

١٠ ـ جعل التعليم عاما ومجـانيا لجميع الاولاد ، ومنع تشغيل الاحداث في المصانـع كما يجري اليوم ، والتوفيق بين التعليم والتربية وبين الانتاج المادي .

هذا ما قاله البيان الشيوعي بالنص في عشـر فقرات متتالية ، ولا نغالي اذا قلنـا بان الاشتراكيين الثوريـين ، وخصوصا في البلاد العربية ، قد طبقوا ثماني فقرات مـن الفقرات العشر ، فهم لم يطبقوا الفقرة الثالثة مثلا : « الغاء الوراثة » لان هذا الالغاء يشكل تحديا صريحا لشرائـع

الاديان السماوية، وهم لم يبلغوا بعد الحالة التي يستطيعون أن يجاهروا فيها بعدائهم للدين ، كما لم يستطيعوا أن يطبقوا الفقرة الثامنة : «جعل العمل اجباريا للجميع» ، اي للرجال والنساء لانهم يعانون من البطالة المنتشرة ، ولانهم أفسدوا مناهج العمل الصناعي والزراعي ، فساء الانتاج وانخفض الاستهلاك خلال عمليات التأميم والاصلاح الزراعي ، فنشروا البطالة .

ولم يكن بمقدورهم أن يضمنوا العمل للجميع ، فكيف اذن يجبرونهم عليه ، وهذا أيضا ، هو ما حال بينهم وبين تطبيق الفقرة السابعة التي تقول : « تكثير المصانع الوطنية وادوات الانتاج ، واصلاح الاراضي البور ، وتحسين الاراضي المزروعة حسب منهاج عام » . ذلك لان هذه الفقرة تعني بدء البناء في المجتمع الجديد ، ولهذا لم يقووا عليها، فكان شأنهم فيها شأن دعاة الشيوعية، وعلى رأسهم كارل ماركس ، الذين يجيدون فقط عمليات الهدم ، ولا يستطيعون أن يرتفعوا بلبنة واحدة ، في صرح البناء . ذلك لان الهدم هين ، فينفذونه بالاعتماد على القوة الثورية ، اما البناء فصعب لا يستطيعونه ، ولهذا يتهيبونه، ويقفون امامه عاجزين !

وما عدا هذا ، نرى ان الثوريين الاشتراكيين ، قد طبقوا كل ما قاله « البيان الشيوعي » فنزعوا ملكية الارض

الكبرى ، وخصصوا الريع لتغطية نفقات الدولة ، وفرضوا الضرائب المتصاعدة ، وصادروا املاك المهاجرين والعصاة والمتمردين . ومعروف أن « العصاة والمتمردين » هم الطبقة التي صب عليها الاشتراكيون الثوريون جام نقمتهم وحقدهم ، فعرضوا ابناءها للجوع والحرمان ، وسموهم « عصاة متمردين » . وكذلك مركز الاشتراكيون الثوريون جميع القروض بايدي الدولة بواسطة المصارف التي أمموها ، ثم اخضعوها لمصرف واحد ، هو ما سموه « المؤسسة الاقتصادية » التي منحوها حق الاحتكار المطلق ، ومركزوا ايضا وسائل النقل في ايدي الدولة ولم يسعوا الى محو الفروق بين المدينة والريف ، كما أمرهم ماركس ، بل اضافوا عليه الرغبة بتسويد ابناء الريف على ابناء المدينة .

معنى هذا أن الاشتراكية الثورية ، ليست في حقيقتها سوى طبعة ثانية عن الشيوعية الماركسية ، وهي ايضا أبرع من الشيوعية ، لانها استطاعت ان تتسلل الى هنا وهناك ، وأن تغزو الافكار والعقائد ، تحت ستائر التمويه التي قالوا فيها « ان اشتراكيتنا اشتراكية تنبع من حاجتنا ، وتنسجم مع عقائدنا ولا تخالف تراثنا » ، مع ان كل هذا الذي طبقوه لم ينبع الا من حاجة كارل ماركس ، ولم ينسجم الا مع عقيدته الملحدة ، وليس بينها وبين تراثنا العربي أية صلة ونسب .

نأتي بعد هذا ، الى ناحية مهمة وخطيرة ، لا نستطيع حيالها الا أن نضع الاشتراكيين الثوريين في قفص الاتهام، فهؤلاء قد وصلـوا الى الحكم في بعض البلاد عن طريـق الثورات المسلحة ، أما في البلاد العربية ، فانهم لم يصلوا الى الحكم الا بواسطة انقلابات عسكرية • والبون شاسع جدا بين ثورة مسلحة ، يحمل معظم ابنائها السلاح في وجه النظام القائم حتى ينتزعوا منه دسوت الحكم ومناصـب السلطان ، وبين انقلاب عسكري يتسلل فيه بعض الضباط العسكريين تحت ستار الظـلام الى ارائك الحكم ، ثـم يستجدون التأييد لحركتهم من ضباط القطعات الأخرى ، أو من أفراد الشعب ، بواسطة برقيات تأييدية ، ثم يفرضون اشخاصهم ونظام الحكم الذي يريـدونه على الشعـب ، ويسمون انفسهم « ثوارا » بعد أن يكونوا قد كموا كـل صوت من اصوات الشعب المعارض •

البون شاسع جدا ، بين الثورة والانقلاب • ومع هذا، وبالرغم من الاساءة البليغة ، لمفهوم الثورة الاسـاسي فقد اصر اصحاب الانقلابات العسكرية في البلاد العربية علـى تسمية انفسهم بأنهم ثوريـون وبأنهم اشتراكيون ، وبـأن اشتراكيتهم تنبع مـن صميم الواقع العربي ، ولكننا بعـد الذي اوضحناه من انطباق ما نفذوه على ما ورد في البيان الشيوعي ثبت لدينا ان الاشتراكية الثورية ليست سـوى وجه خلفي للشيوعية الماركسية •

اما الناحية المهمة الخطيرة ، التي لا نستطيع حيالها الا أن نضع دعاة الاشتراكية الثورية في قفص الاتهام ، سواء اقامـوا اشتراكيتهـم على ثـورة مسلحة او على انقلاب عسكري ، فتتلخص بما يلي :

ان الاشتراكيين الثوريين، قد طبقوا جهارا معظم تعاليم كارل ماركس معلـم الشيوعية الاول ، وهـم لم يطبقوا المبادىء التي لم تسمح لهم قوتهم وواقع بلادهم وطبيعـة مجتمعهم بسرعـة تطبيقها . وهم في نفس الوقت قد أعلنوا تبرؤهم من الشيوعية كما شنوا عليها احيانا حربا شعواء . ولا يدري أحد مـا اذا كان هذا التبرؤ من الشيوعية تبرءا حقيقيا او اذا كانت هـذه الحرب التي يشنونها عليها حربا صحيحـة .

فمن المعروف عند الشيوعيين ، وكما اوردنا قبـلا ، على لسان ماركس وانغلـز ولينين وستالين ، أن « الغايـة تبرر الوسيلة » . فما يدرينـا اذن أن يكون الاشتراكيون الثوريون ، لا يستهدفون الا تحقيق الشيوعية القصوى ، التي حلـم بها ماركس وانغلز ، وأن مـا يقولونه مـن أن اشتراكيتهم اشتراكية قومية او محلية او وطنية ، ليس الا ذرا للرماد ، او ليس سوى « وسيلة » لتحقيق « الغايـة » التي هي الشيوعية ؟

ألم يصادر الاشتراكيون الثوريون حريات المواطنـين

العامة ، وهذا ينطبق تماما على مـا قاله ستالين عام ١٩٣٨ من « أن منح البورجـوازيين (اي الطبقـة الوسطى في المجتمع) الحريات العامة لا يعدو أن يكون سماحا لهـؤلاء البورجوازيين بالكيد لنا والتآمر علينا ، وتقويض نظامنا ، ولهذا فاننا لا نمنح الحرية الا للطبقة التي تحكم باسمها!»؟

ألم يحصر الاشتراكيون الثوريون ، مناصب الحكـم بأنفسهم وحدهم ، اي كما قـال لينين تماما عـام ١٩٢٠ : « نحن لا نستطيع أن نأخذ بآراء المخبولين والاغبياء الذين يطالبون بالحرية، فنحن – في ظل ديكتاتورية البروليتاريا – لا نستطيع أن نمنح المواطنين حريتهم السياسية ، خشية أن يستخدم اعداء الشيوعية هذه الحرية في القضاء علينا » ؟

ألـم يقض الاشتراكيـون الثوريـون على النظـم الديمقراطية البرلمانية ، أو لم يلغوا المجالس النيابية ، أو لم يحرموا الشعب من حق انتخاب ممثليه ، بل فرضوهم عليه فرضا ، او أجروا لهم انتخابات صورية ، ليس بينها وبـين التمثيل الحقيقي اية صلـة ، اي تماما كما قال لينين عـام ١٩٢٢ : « يجب أن يعرف شعبنـا ، اننا لن نسمح بقيـام مجالس نيابيـة يستطيع خصـومنا آن يجدوا لهـم مكانا فيهـا ... فنحن لا نمنح الحريـة السياسية ، لخصومنـا واعدائنـا » ؟

ألم يستعمل الاشتراكيون الثوريون اقصى اسبـاب

الشدة والعنف ضد الفئات السياسية الأُخرى كما أوصى بذلك لينين عام ١٩٢٢ حيث قال : « ان نظم الحكم التي لا تستند الى القهر وفرض السلطة على الشعب ، مصيرها الانهيار الكامل ، ولهذا فاننا نعتمد على القهر وفرض السلطة في حماية نظامنا » ؟

بل ان ستالين نفسه قال ايضا عام ١٩٣٨ : « ان الشيوعي المخلص في الدول غير الشيوعية ، هو ذلك الذي يعرف كيف يقضي على نظم الحكم غير الشيوعية بلا هوادة وبلا رحمة او شفقة ... وهو ذلك الذي يستعين بكل وسائل التضليل والخداع وسعة الحيلة لفرض النظم الشيوعية على البلاد التي يعمل فيها » .

ألم يكفر الاشتراكيون الثوريون بحرية الفرد ؟ ألم ينتهكوها ؟ طبقا لما قاله ستالين عام ١٩٣٧ اذ قال مانصه : « دعوني اوضح لكم بصراحة ، أن نظامنا الشيوعي لا يؤمن بالحرية الفردية ، فالحرية الفردية تعني القضاء على « الجماعية » وتعني الخروج على طاعة القانون ، وتعني الانحراف عن الماركسية ، وهذا النوع من الحرية (اي الحرية الفردية) هو أخطر ما يهدد نظامنا » .

ولو تتبعنا مفهوم الحرية الذي يعمل في ظله الاشتراكيون الثوريون ، لما وجدناه يختلف في شيء عن

مفهوم الحرية الشيوعية الماركسية ، الذي أوضحه ستالين عام ١٩٣٧ بقوله : « ان دستورنا السوفياتي ينص على منح الحرية للمواطنين • ولكن يجب أن يكون مفهوما ، ان هذه الحرية لا تعني حق الوقوف في وجهنا ، او حق تقويض نظامنا ، او حق الثورة ضد النظام الشيوعي ، او حق انتقاد المبادىء الماركسية، او حق تكوين الهيئات المناهضة لنا ••• ان هذه الحرية التي ينص عليها دستورنا السوفياتي ، لا تعني الا شيئا واحدا ، هو حق « ديكتاتورية البروليتاريا » في الاستمتاع بالحرية التي تكفل لها تحقيق الاهداف الشيوعية » •

اذن ؟ أليس هذا واضحا ايضا في المناهج التطبيقية لمفهوم الحرية الذي يعتمد عليه الاشتراكيون الثوريون ؟

وبعد كل هذا الذي اوردناه ، ماذا بقي من النظريات الماركسية الشيوعية ، التي لم يطبقها بعد الاشتراكيون الثوريون ؟

انهم لم يجهروا بالالحاد ومحاربة الاديان، بل تجاهلوا ذلك وتناسوه في معظم بلادهم ، أما في البلاد العربية فانهم لم يشهروا مبدأ الالحاد ، ولم يتصدوا لمحاربة الدين ، وقد يكونون صادقين في موقفهم الديني وحينئذ لا يكونون اشتراكيين ولا شيوعيين ، لان الاشتراكية والشيوعية لا تؤمن مطلقا باديان السماء، أو يكونون غير صادقين بموقفهم

الديني ، وحينئذ يكونون قد اختاروا مذهب « التقيـــة » ليستروا حقيقة نواياهم عملا بتعاليم لينين الذي قال: «الدين افيون الشعوب ، فيجب أن تهتم عناصرنا التي تقوم بالدعاية للشيوعية بنشـــر الالحـــاد والدعوة لــه ، ولكن ، بطرق سرية خفية » . واضاف : « لماذا لا نعلن في برامجنا اننـــا ملحدون ؟ اننا نفعل ذلك ، لكي لا نزود خصومنا بســـلاح يهاجموننا به ... فعدد المؤمنين بالله ، لا يزال يفوق عـــدد الملحـــدين » .

مـــن هنـــا يبدو أن خطر « التقية » خطر جســـيم . فالشيوعية التي كشفت عن نفسها حين أعلنت بصراحة عـــن الحادها، وعن هدمها لكل القيم والمثل والمبادىء والاخلاق، قد عجزت عن تحقيق زحفها على شعوب العالم ، وفشـــلت في اجتذاب المؤيدين والانصار لمذهبها، بسبب هذا الكشف الصريح لمـــا تعتنقه من مبادىء وأهداف .

أما الاشتراكية الثورية فقـــد تبنت معظم النظريـــات والتعاليم الماركسية . وأخفت حقيقة نواياها حيال العقائـــد والاديان والاخلاق ، فاستطاعت أن تتسلل الى قلوب وعقول بعض ذوي النوايـــا الحسنة ، ممن اغراهـــم شعار التغني باهداف العدل الاجتماعي ، وبأســـاطير تحقيق المســـاواة والقضاء على الاقطاع والاحتكار والاستغلال ، فوقعوا في شراك الاشتراكية الثورية ، لتي لـــم تكن في حقيقتها غير

شيوعية ماركسية ، ولهذا قلنا ان خطر التقية خطر جسيم !

ولا نستطيع ، مع ايرادنا مـا تتبناه النظم الثوريـة الاشتراكية ، من النظريات الماركسية الشيوعية ، أن نغفـل اهمية السلوك الذي يعتمد عليه الثوريـون الاشتراكيون حيال المجتمع ، وهو سلوك مأخوذ بنصوصه وفصوصه عن السلوك الشيوعي البحت •

فلقد ركز ستالين تركيزا دقيقا على محـاولات قلب الفكر الاجتماعي رأسـا على عقب ، لكي تتحقـق للحزب الشيوعي السيطرة التامـة على عقـول المواطنين ، وهـذا بالضبط مـا يصنعه قـادة الحركات الثورية الاشتراكية ، واحزابها المتعددة •

يقول ستالين : « يجب أن نخلـق طرازا جديدا مـن النشء والرأي العام عن طريق نشر المبادىء الشيوعيـة ، على نحو يجعل عقـول جميع الناس متشابهة • فالعقـول المتشابهة هي التي تتقبل سياستنا الجماعية ، اذ يكفـي أن نقنع عقلا واحدا بمبادئنا ، لكي تقتنع كل العقول الاخرى ، ما دامت هذه العقول متشابهة ومصبوبة في قالب واحد ! »

وفي سنة ١٩٢٩ زاد ستالين هذا الموضوع ايضاحـا فقال : « يجب ان تكون الاداب والفنون والعلوم ، أسلحة في أيدي الحزب ، فعن طريق سيطرة الحزب على الاداب ،

نستطيع ان نربي مشاعر الناس ، وعن طريق السيطرة على الفنون ، نستطيع ان نسيطر على اذواقهم ، وعن طريق السيطرة على العلوم ، نستطيع أن نسيطر على سلوكهم ... يجب أن يكون الرأي العام مجرد انعكاس لمبادئنا وآرائنا وسلوكنا » .

أجل ، هذا ما يقوله ستالين الشيوعي . ولكن ، أليس هذا أيضا ما يطبقه بحذافيره الاشتراكيون الثوريون ، أو لسنا نعلم كلنا انه ما من حركة اشتراكية ثورية ، الا وعمدت الى مصادرة السلوك العام ، كما أخضعت لسيطرتها كل نتاج الفكر والعلم والادب والفن ، تحت طائلة عقوبات السجن والتعذيب والتنكيل .

ننتقل بعد هذا الى موضوع الصحافة ودور الطباعة والنشر في ظل الحركات الثورية الاشتراكية ، لنرى أن تأميم الصحافة أو مصادرتها ، أو خلق صحافة جديدة ، هو الشيء الذي لم تشذ عنه حركة ثورية اشتراكية واحدة ، وهذا الأسلوب مقتبس ايضا بنصه عن التعاليم الشيوعية .

لقد قال ستالين عام ١٩٢٧ : « يجب أن تخضع الصحافة ودور النشر خضوعا مطلقا ، لا تساهل ولا تسامح فيه ، للأجهزة الشيوعية » .

وبالفعل خضعت الصحافة ودور النشر خضوعا مطلقا

لا تساهل ولا تسامح فيه للاجهزة الاشتراكية الثورية في كل بلد من بلاد العالم •

وقال ستالين أيضا : « اذا كان اولئك الذين يتحدثون عن حرية الصحافة ، يقصدون منح العناصر البورجوازية (الطبقة الوسطى) حرية القول والنشر ، فانني لا اتردد في القول بأن حرية كهذه الحرية لن تقوم في بلادنا ، ويجب أن يكون مفهوما اننا لن نصرح في اي وقت من الاوقات بأننا نؤمن بمنح حرية الصحافة لجميع طبقات المجتمع ••• فنحن لا نمنح حرية الصحافة الا للطبقة التي نحكم باسمها » •

أفليس هذا هو ما صنعته وتصنعه بلاد الاشتراكية الثورية ؟

بل ألم تصنع ما هو أقسى منه حين منعت ، حتى على الطبقة التي تحكم باسمها حق التمتع بحريتها الصحفية ، وحصرت هذا الحق بالجهاز الحكومي وحده ، هذا الجهاز الذي سيطر عليه فرد ديكتاتور أو سيطرت عليه قيادة جماعية ، حزبية او عسكرية ؟

ثم ، ما لنا نذهب بعيدا في التدليل على الصلة الوثقى القائمة بين المذهب الشيوعي والاشتراكية الثورية ؟ أليس من المعروف أن كارل ماركس ، هو أبو الاشتراكية

الثورية الحديثة ، سواء اعترف بهذه الحقيقة ، الاشتراكيون الثوريون أم لم يعترفوا ؟!

أو ليس كارل ماركس هــو الذي رفض مبدأ التدرج في السير نحو طريق التقدم ، والذي رفض منهاج التطــور الطبيعــي ، والذي سن طريــق الثورة الحتمي ، لتحقيــق اشتراكيته ، اعتقادا منه أن الملكية الخاصة لا بــد من أن تدافع عن نفسها حتى الرمق الاخير ، وبأن الطبقة الحاكمة، لم يسبق لها في التاريخ أن تنازلت عن حقوقها وامتيازاتها عن طوع وطيبة خاطر ؟

لقد أبى الثوريــون الا أن يسيروا على نفس النهــج الذي رسمه كارل ماركس ، وهم لو أرادوا أن يسبروا غور الحقيقة التاريخية ، لعلموا أن ماركس قد بنى نظريته هذه على وهم خاطىء ، لان التاريخ يحفل بأمثلة كثيرة تدل على أن الكثيرين من الحكام قد تنازلوا عن امتيازاتهم ، قسرا عن طريــق الضغط الشعبي الســلمي في بعض الاحيــان وطوعا ، عن طريــق الاقتناع بالمسؤولية الانسانية في بعض الاحيان الاخرى !

ألم ينتفض الشعب البريطاني مثلا عام ١٦٨٨ علــى الثائر الانكليزي اللورد اوليفر كرومــويل ، الذي اطــاح بالملكية واقــام مكانها جمهوريــة بريطانية ، مــا لبث أن أخضعها الى ديكتاتــوريته الشخصية ، حتى هب ضــده

الشعب البريطاني الذي أطاح به وبجمهوريته وأعاد الى بريطانيا نظام الحكم الملكي ؟

ثم ، ألم يضع العرش البريطاني ، أساس الملكية الدستورية للشعب البريطاني ، متنازلا عن امتيازات الحكم ، بحيث ظل ملك بريطانيا ، حتى هذا العصر معروفا بانه ملك يملك ولا يحكم ؟

وها هي البلاد الاسكندينافية في شمال اوربة ، وأعني السويد والنروج والدانيمارك ، اليست كلها دولا ملكية ، قام فيها نظام اشتراكي ، عن طريق التطور التدريجي ، الذي أدى الى عدم استئثار الطبقة الحاكمة بسلطات او امتيازات عن سائر الشعب ، بحيث وصلت الشعوب الاسكندينافية الى هذا النوع من الحكم ، عن طريق التطور لا عن طريق الثورة ؟

وفي تاريخنا الاسلامي أمثلة كثيرة على هذه المعاني، ألم يقف مثلا الخليفة الاموي ، معاوية الثاني سنة اربع وستين للهجرة (٦٨٣ م) في جامع بني امية ، معلنا تنازله وتنازل اسرته عن سلطة الحكم ، تاركا لشعبه أن يختار حاكمه الجديد ، فاختار هذا الشعب مروان بن الحكم خليفة للمسلمين، وانتقلت السلطة بهذا العمل من السفيانيين الى المروانيين ، بدون حرب أو ثورة ، وعن طوع لا عن اكراه ؟

ألم يحجم الخليفة الثاني عمر بن الخطاب عن استخلاف أحد من بعده تاركا لاهل الشورى أن يختاروا خليفة لرسول الله من بينهم ، ليكون حاكما وأميرا للمؤمنين ؟

ثم .. ألم تصل الاحزاب الاشتراكية الديمقراطية الى مناصب الحكم عن طريق النظام الديمقراطي ، وبدون اللجوء الى الثورة والعنف ، مرات عديدة ، في فرنسا وسويسرة وايطالية وبلجيكا ، وغيرها من بلاد العالم ، أو لم يبعث الاشتراكيون والشيوعيون بأعداد من النواب الى المجالس النيابية ، ليعبروا عن آرائهم ، بل ، وليفرضوها ، في حدود ما يملكونه من تمثيل شعبي وذلك في أكثر بلاد العالم ومنها البلاد العربية ؟

اذن ليس اللجوء الى الثورة والعنف، ضرورة حتمية، كما قال ماركس . وان التطور الطبيعي يستطيع أن يحقق أشياء كثيرة ، اذا توفرت النيات الحسنة ، والرغبة بتحقيق تطور منصف مقبول ، وهكذا نرى أن الاستشهاد التاريخي لم يكن في مصلحة اوهام ماركس ، الذي اعتقد بأن تغيير النظام الاقتصادي او السياسي لا يتحقق الا بالثورة والدم، لان منطق التاريخ قد دل حتى الآن على أن العكس ممكن. بل ان العكس هو الأصلح والأقوى على أستمرار التقدم والبقاء ، ذلك لأن معظم الثورات قد أكلت بعضها بعضا ، كما أن معظم الثائرين ، ينهمكون في أكل رؤوس بعضهم

بعضا ، فيتخبط السير المنتظم ، وكثيرا مـا ينعدم في ظـل الثورة تحقيق التقدم المطلوب •

وفوق هذا نرى أن كارل ماركس ، الذي اخطـأ في فهم الحقيقة التاريخية بما سماه « التفسير المادي للتاريخ » قد أخطأ ايضا خطأ فادحا في قوله ان تسويد طبقة واحـدة هي طبقة العمال ، سيؤدي الى انعدام النزاع الطبقي الذي سـاد عصـور التاريخ كلها على حسـب زعمه ، وبالتالي سيؤدي انعدام النزاع الطبقي ـ حسب زعمه ايضا ـ الى القضاء على الخلافات الاقتصادية • ومع سيادة طبقة العمال يصبح المجتمع مكونا من طبقة واحدة ليس فيها أي نزاع •

الشيء الذي لا يستطيع أن ينكره أحد حيال هـذا الزعم ، هو أن انعدام الخلاف الاقتصادي تقريبا في بـلاد الاشتراكيات الثورية قـد خلق نوعـا جديدا من الخلاف، ليس بمقدور أحد أن يقضي عليه، هو الخلاف على السلطة، الخلاف على مناصب الدولة والحكم ، حتى أن بلاد الاتحاد السوفياتي نفسها قد شهدت الكثير من الصراع على مناصب الحكم بين أعضـاء الحزب الشيوعي نفسه ، ظهر أثره في عمليات الصراع أو الاعدام أو التنحية عن المناصب كما حدث لتروتسـكي وبيريـا ومالنكوف ومولوتـوف ، وأخيرا خروشـوف •

ويخطىء من يظن أن هذه العمليات ، كانت تقتصـر

عند حدوثها ، على افراد معدودين ، اذ أن كل حادثة ضد فرد معين كانت تشمل الالوف العديدة من انصاره ومؤيديه، فيذهب بعضهم الى سجون سيبريا ومعتقلاتها او الى مقاصل الاعدام ، او الى الاضطهاد الاجتماعي ، او الى الاقصاء عن العمل او الى النفي خارج المنطقة ، أي أن ذهاب خروشوف ــ مثلا ــ قد ذهب ايضا بجميع انصاره ومؤيديه ، سواء كانوا من داخل الحزب الشيوعي أو من خارجه ، وهذا مما يؤكد فشل نظريات ماركس فشلا ذريعا ، بمعنى أن انعدام النزاع الطبقي لم يحل دون قيام نزاعات أخرى ، هذا بالرغم من أن المختلفين قد اعتادوا على تبرير خلافاتهم ، بحيث يتبجح المنتصر منهم بحرصه على « العقائديات » ومبادرته للذود عنها ملحقا شتى الاتهامات برفيقه المنهزم ، الذي لو رافقه حسن الطالع ضد خصمه لكان هو العقائدي البطل !

بعد هذا الشرح المستفيض لواقع الاشتراكيات الثورية ، نرى أن البلاد العربية والاسلامية لا تستطيع أن تهضم بأي حال من الاحوال الحركات الثورية الاشتراكية لاسباب كثيرة نذكر منها ما يلي :

١ ــ ان الاشتراكية الثورية ، قد أثبتت بما لا يحتاج الى دليل جديد ، أنها هي الطبعة الثانية للمذهب الشيوعي ، أو هي الصورة الخلفية لحقيقة الشيوعية . وحيث أن

الشيوعية قد رفضتها الشعوب العربية والاسلامية ، فان الاشتراكية الثورية ايضا ، لن تستطيع أن تجد لنفسها موقع قدم على ارض العروبة والاسلام ، وان مظاهر الحركات الثورية القائمة اليوم في بعض بلاد العرب ، لا تحمل أبدا بذور الاستمرار أو البقاء لانها حركات قد أعتمدت في أساس قيامها على انقلابات عسكرية ، ثم بنت وجودها على أنواع من الحكم البوليسي أو العسكري المختلف الالوان، وتركت الشعب بمعزل عن مجرد ابداء الرأي بنظام الحكم أو الحياة التي يريدها ، ولهذا لا يستطيع أحد أن يؤكد بأن الشعوب العربية ترضى بالاشتراكية الثورية ، ما دام الزعم بهذا الرضى منطلقا من افواه الحاكمين وحدهم ، بل ان هنالك اكثر من دليل على أن الامة العربية لن تقول ابدا بالثورية الاشتراكية ، فيما اذا أعيدت اليها حرية القول والرأي والعمل •

٢ ـ ان الاشتراكيات الثورية في جميع بلاد العالم ، سواء كانت حركات ثورية فعلية ، أو حركات انقلابية ، قد فشلت في تحقيق التقدم المطلوب لشعوبها • وهي ما زالت دائبة على الانكفاء عن مواقعها الاشتراكية التي اثبتت فشلها الاقتصادي والزراعي ، فها هو الاتحاد السوفياتي يبيع ذهبه ، ليشتري به القمح من بلاد العالم الاخرى ، بعد أن أعلن خروشوف رئيس وزراء الاتحاد السوفياتي السابق

رسميا فشل الخطط الزراعية كلها بعد تجارب ثوريةاستمرت خمسين عامـا ، مع أن بلاد الاتحـاد السوفياتي ، كانـت معروفة في التاريخ بأنها اهراء يزود العالـم بما يحتاج من قمح وحبوب .

وكذلك كان شـأن الخطط الاقتصادية في الاتحـاد السوفياتي التي لم تستطع أيضا بعد خمسين عاما ثوريا . ان تحقـق للفرد السوفييتي مستوى الحيـاة المطلوب . اي المستـوى الـذي يستطيـع ان يجـاري بـه مستـوى حيـاة الفـرد عنـد شعـوب اخـرى ، ولهذا رأينا نيكيتا خروشوف يتهكم علنا وفي خطاب رسمي ألقاه في أحد مصانع السويد عام ١٩٦٣ على مفهوم الثورية حين قال : « لو أن لينين طلب من العامل السوفياتـي أن يقوم بثورته من أجل الحصول على الرغيف ، لحك رأسـه دون اجابة طلبه » . وكان هذا في معرض تنديده بحكـام الصين الشعبية الشيوعيين الذين كانوا يصرون على مبـدأ تحقيق « الثورة العالمية » لاقامـة « الشيوعية العالمية » ، فقال لهـم خروشوف : « كيف نستطيع أن ندعو العامـل الشيوعي للقيام بالثورة وهو لا يحصل على لباسه الداخلي . بينما يرى هذا العامل ، زميله في البلاد غير الأشتراكيـة ، لا حاصلا على اللباس الداخلي وحـده ، بل وعلى المعاطف الانيقة ايضا ! » .

وما نقوله عن الاتحاد السوفياتي نقوله عن رومانيا والمجر ويوغوسلافيا ، بل عن كوبا ايضا التي بدأت بالتخلي عن قوانين الاصلاح الزراعي بعدما أنزل هذا « الاصلاح » النكبات بمحاصيل السكر الكوبي •

هذا فيما نعتقد يكفي لتقديم دليل سريع على فشل الاشتراكيات الثورية في العالم ، دون أن تتعرض لوصف الحال التي آلت اليها بلاد الاشتراكيات الثورية في العالم العربي ، لان مما لا شك فيه أن تجارب الاتحاد السوفياتي تبقى أعمق واضخم من اية تجربة اخرى • ذلك لانها قامت على القوة الحاسمة والارادة الحازمة ، ولانها أستمرت قرابة خمسين عاما متواليا ، فليس من العدل اذن أن نعتبر فشل الاشتراكيات الثورية في البلاد العربية دليلا وحيدا نعتمد عليه ، ما دمنا نستطيع دعم هذا الرأي ، بالحديث عن الفشل الاكبر ، الذي منيت به التجارب الكبرى !

٣ ــ من أخطر ما تعتمد عليه الاشتراكيات الثورية ، أنها تفرض نفسها على شعب كامل فرضا حاسما لا يقبل رأيا ، ولا يتقيد بنظام او قانون •

وقد يكون هذا مقبولا نوعا ما ، لو أن القائمين بالثورة ، كانوا يشكلون اكثرية الشعب فعلا أو اكثرية الامة التي ينتمون اليها ، غير أن الاشتراكيات الثورية في معظم بلاد العالم ــ وفي بلاد العرب بشكل خاص ــ لم

تكن ثورة شعب ، وانما كانت « ثــورة اشخاص » سموا أنفسهم « النخبة » أو « الطليعة » واستطاعوا أن يصلوا الى مناصب الحكم عن طريق انقلابات عسكرية ، أو مؤامرات سياسية ، أو عن طريق انهزام حربي ، أي كما حدث في دول اوربــة الشرقية التي فرض عليهـا الاتحــاد السوفياتي ، حكومــات شيوعية عقب انتهــاء الحرب العالمية الثانيــة (١٩٣٩ ــ ١٩٤٥) ، فحكمت شعوبهــا حكما بوليسيا ، لا تتمتع فيه الاكثرية بأي حق .

ثم ما لبث اهل النخبة هؤلاء أن توازعوا فيما بينهــم مراكز السلطة والقوة والنفوذ ، وراحوا يفرضون وجودهم وأفكارهم ونظمهم على الشعب ، مع علمهم بانهم كثيرا مــا يكونون افرادا معدودين ، هم أقل من الاقلية وليس لهــم قواعد شعبية ، بل ليس وراءهم منظمات فكرية أو عقائدية، فيستنجدون بالنظم الغريبة ، ويستقدمون خبراء التنظيــم السريين من الخارج ، ويفرضون اشخاصهم بالقوة المسلحة، معلنين انهم هم النخبة ورجــال القيادة ، تاركــين الشعب خاضعا لحكم الارهاب ، وبمعزل عن أن يقول رأيــه ، أو يستعمل حريته ، أو يعبر عن نظام الحكم الذي يريد وفي هذا ما فيه من امتهان للشعب الذي يعتبرونه قاصرا لا يحق له أن يقول كلمة واحدة ، كما يعتبرون أنفسهم أوصياء عليه مالكــين لرقبته كما لو كان مجموعة من السوائم ، فهــم « النخبة » بالرغم من الصراع الشخصي على المناصب الذي

يحدث فيما بينهم كل يوم ٠

وهم « اهل القيادة » بالرغم من انطواء اشخاص منهم يكونون في أعلى مراتب السلطة أو الحكم ، فيخمدون ، ليبرز مكانهم أشخاص جدد من رفاقهم الذين أنسوا من أنفسهم القوة اللازمة لازاحتهم ٠ وهكذا تتكرر حوادث الصراع ، وتتكرر معها بيانات التبرير ، ويبقى الشعب باكثريته الساحقة ، معزولا عن ممارسة حقوقه الشرعية ، وفاقدا حقه في الامن والطمأنينة والتقدم والاستقرار ، وهذا ما لا يقره عدل او يقبل به انسان ٠

ان الاشتراكية الثورية ، مرفوضة رفضا باتا ، لانها من حيث المبدأ هي الصورة الخلفية للماركسية الشيوعية ، بالرغم مما يصطنعونه لها من أغلفة قومية أو محلية ، ثم لانها فشلت في تحقيق أي ادعاء يتعلق بالتقدم أو الحرية أو العدل ، فضلا عن كون السلطة الحاكمة فيها ، لا تتألف الا من أقلية ضئيلة تفرض نفسها على الشعب بقوة السلاح والارهاب ، بعد أن تجرد الاكثرية الساحقة من حقها في الرأي أو القول أو العمل ٠

الفصل الثالث

الاشتراكية الديموقراطية

الاشتراكية الديمقراطية

فوضى فكرية تفشل في تحديد مراميها بتعريف شامل وتناقضات كبيرة ضمن مثلها الاقتصادية والاجتماعية

يخطىء من يظن أن « الاشتراكية الديمقراطية » ، بالمعنى الديموقراطي الدستوري الصحيح ، تلتقي أو يمكن أن تلتقي مع « الاشتراكية الثورية » ، بالرغم من كلمة « الاشتراكية » التي تجمع فيما بينهما • فالبون بينهما بون شاسع ، ونقاط التلاقي بعيدة جدا ، وقد تكون مستعصية او مستحيلة !

واذا كانت « الاشتراكية الثورية » هي الوجه الخلفي للشيوعية الماركسية، وهي التي امتصت النظريات الشيوعية وحاولت أن تطبقها ببراعة ودقة ، فان « الاشتراكية الديمقراطية » لا تزيد عن كونها محاولة من محاولات تطبيق العدالة الاجتماعية ، نجحت بها في بعض المجالات ، وفشلت في بعض المجالات الاخرى •

اول افتراق كبير بين الاشتراكية الثورية والاشتراكية

الديمقراطية ، يتجسد في الحد الفاصل الواضح ، بين الديمقراطية ، وبين الثورة ، فبينما يسعى الديمقراطيون الى تحقيق اشتراكيتهم عن طريق ما يسمونه بالتوعية الفكرية ، ثم عن طريق النظم البرلمانية والنيابية ، وفي ظل الدساتير السائدة والقوانين المقررة ، ومع مراعاة اعراف التطور المنطقية المقبولة ، نرى الثوريين يضربون بهذا كله عرض الحائط ، ويسعون الى تطبيق اشتراكيتهم عن طريق الثورة ، واي ثورة : الثورة العنيفة المدمرة ، التي دعا اليها ماركس ولينين ، والتي جعلت من أهدافها تمزيق الدساتير، وانتهاك القوانين، والهزء باعراف التطور الطبيعي المقبول ، معتمدين على عنصري السلاح والقوة ، كي يفرضوا آرائهم وأفكارهم ونظمهم ، التي كثيرا ما تكون فوضوية مضطربة ، على شعب باسره ، بدون تمكينه من ابداء رأيه . وفي ظل المصادرة الكاملة لحريات الافراد العامة والخاصة ، جاعلين من أنفسهم ، قادة وحكاما وموجهين ، لا يكترثون بما يسمى الاقلية او الاكثرية من الشعب ، فهم الاوصياء عليه ، ولو كانوا في تعدادهم اقل من القلة ، وهم فلاسفة حكمه ، واصحاب تقرير مصيره ، ولو كان مخالفوهم هم الكثرة الكاثرة التي تضم جميع فئات الشعب ، بما في ذلك قادته ومفكروه وفلاسفته الاخرون .

من هنا يبدأ الافتراق الكبير بين الثوريين

والديمقراطيين ، ومن هنا تختلف النظرة لكل منهما ، بمعنى أن الانسان يرى نفسه ملزما لحشر الاشتراكيين الثوريين مع الشيوعيين ، باعتبار الفريقين فريقا واحدا ، جمعت بينهما نظم ومبادىء ونظريات ، كما جمع بينهما مبدأ الاعتماد على السلاح وعلى القوة لفرض أنفسهم أو حكمهم على الاخرين، وهذا ما لا ينطبق على الاشتراكيين الديمقراطيين بحال، لان هؤلاء يناقشون الفكر بالفكر ، ويقارعون الحجة بالحجة ، ويعرضون أفكارهم على الناس ، فان قبلوها ، وساروا معهم راضين مؤيدين ، كان لهم وللناس شأن مقبول في السير على الدروب الجديدة ، والا فلاولئك رأيهم وفكرهم ، ولهؤلاء ما يختارون من دروب ، وشتان بين من يقدم لك بضاعته الفكرية او السياسية او الاجتماعية وهو مشهر عليك سلاح القوة ، وبين من يقدمها لك عن طريق العرض والمناقشة والاقناع .

ومن ضمن هذا الاعتبار ، نرى أنفسنا مسوقين لمناقشة الفكرة الاشتراكية الديمقراطية ، مناقشة موضوعية سليمة ، مقرونة باحترام القائلين بها ، عن نيات حسنة لا تبتغي سوى الخير العام ، او الداعين اليها عن رغبات صادقة بتحقيق الاصلاح الاجتماعي ، الذي يستهدفه كل مفكر ، ويرنو اليه كل انسان ، ويسعى الى تحقيقه كل مصلح عامل .

قلنا فيما سبق ان الحلم بقيام مجتمع اشتراكي ليس

حلما جديدا ، بل هو حلم دغدغ افكار العلماء والفلاسفة منذ أقدم العصور • ومن المعروف أن افلاطون كان اول من أدخل المفهوم الاشتراكي في نطاق البحث الفلسفي ، فهو الذي قال في كتابه « الجمهورية » منذ ما يقرب من ألفين وخمسماية سنة أن المجتمع في « المدينة الفاضلة » يجب أن يعتمد على اقامة دولة منظمة تنظيما مثاليا غايتها تحقيق العدالة • وقد نظم افلاطون مجتمع مدينته ضمن ثلاث طبقات : الاولى « الطبقة الذهبية » ، وهي طبقة الحكام ذوي الامر والتدبير ، والثانية « الطبقة الفضية » وهي طبقة الجنود ذوي الحراسة والدفاع، والثالثة «الطبقة النحاسية» وهي طبقة العمال ذوي الانتاج والتثمير •

ورأى افلاطون أن الطبقة الاولى هي طبقة الفلاسفة ، وهكذا يكون الحكم للفلاسفة ، كما يكون هنالك اهتمام خاص باختيار الرؤساء، لان العدالة منوطةبحسن اختيارهم، وبضرورة تنشئتهم تنشئة عقل وفن ورياضة • وعلى الرئيس فيما رأى افلاطون ، أن يحافظ على وحدة الدولة ، كما أن الشعور بضرورة هذه الوحدة هو فضيلة الرئيس الاولى ، ولن يتم له ذلك ، فيما رأى افلاطون ايضا ، الا اذا اتبع نظام « المعيشة المشتركة » فلا ملكية خاصة ، ولا فضة ، ولا عقار ، ولا وراثة •

وقال افلاطون ايضا في « جمهوريته » : « وان خلا

ابناء الرؤساء من هذه الصفات الضرورية وجب اسقاطهم الى درجة دون درجة الرؤساء ، وكذلك لا بد للرؤساء من عيشة اخوة ينضوون اليها متحلين بالمزايا السقراطية الاربع: الحكمة والشجاعة والعدالة والعفة » .

ويتابع افلاطون اقواله في تعداد الامور التي يجب الاعتماد عليها للحفاظ على وحدة الدولة فيقول : « يجب أن يشتمل النظام على اشتراكية النساء والأولاد ، فليس لاحد الحق بانشاء اسرة مستقلة ، كما ليس له الحق بتربية الاولاد ، لان الجميع ملك الدولة ، وهي وحدها تشرف على تنشئة العضو الصالح ، كما تشرف على انجاب النسل المختار » .

هذا ما قاله افلاطون في مطلع عهده الفلسفي (حوالي عام ٣٨٠ قبل الميلاد) . ولكنه في كتابه «النواميس» الذي اصدره في شيخوخته، وبعدما تمرس بعمق البحث والدرس والتجربة ، عاد عن كثير من أفكاره الاشتراكية ، ومنها اشتراكية الاملاك والنساء .

نريد أن نقول بأن الفكر الاشتراكي ليس فكرا جديدا ، وهو موضوع أشغل عقول الفلاسفة والمفكرين منذ مئات أو آلاف السنين ، واذا كان الكثيرون من الناس يطلقون على كارل ماركس الذي مات عام ١٨٨٣ ميلادية ،

أي قبل آثنتين وثمانين سنة أسم « ابو الفكر الاشتراكي » ، فان في هذا مغايرة للواقع ، لان ماركس لـم يكن سوى واحد من الذين مروا بالمئات على طريق الفلسفة او البحث او الاستقصاء ، الا أن الذي لا شك فيه هو أن ماركس كان أجرأ من أعلن عن مبادىء تهديم المثل والفضائـل ونواميس الاخلاق •

والاشتراكية ، بالرغم من كونها فكرا قديما ، اضطربت فيه البحوث ، وتضاربت حـوله الاراء ، وأختلفت فيـه المفاهيم ، فان مما لا شك فيه أن المفهوم الاشتراكي ككل ، قد آقتحم ميادين الصراع الاجتماعي بقوة منذ مطلع القرن العشرين •

ولئن كان هذا المفهوم في القرون السابقة دائرا فـي محيط البحث المجرد ، فانه قـد انتقل عقب الحرب العالمية الاولى الى الظهور على مسارح الصراع المختلفة ، وحـين قامت الثورة الشيوعية الاشتراكية في روسيا عـام ١٩١٧ كانت ايذانا بتقدم اشتراكي سريع ، كذلك برز هذا التقدم وازداد وضوحا عقب الحرب العالمية الثانية (١٩٤٥) حيث بدأ الاستعمار الاوربي بالانحسار عن مواقعه التي جثـم عليها مئات السنين في آسيا وافريقيا ، وحيث هبت شعوب كثيرة من رقادها الطويل تطالب بحريتها واستقلالها، وبحقها في سيادتها على أرضها ، فكان طبيعيـا أن يرافق الصراع

السياسي ، صراعات اقتصادية واجتماعية وفكرية ، فـاذا بالفكر الاشتراكي ، يبدو وكأنـه يزحف زحفا سريعا هنـا وهناك ، حيث يجد الانصار والاتباع والمؤيدين .

وكانت مواطن الزحف الاشتراكي ، واضحة كاكثر ما يكون الوضوح في البلاد التي نالت استقلالها حديثا ، أو ظهرت الى عالم الوجود ، بعد أن عانت ما عانته من رواسب التبعية التي فرضها الاستعمار عليها ، ومن مصاعب السير على أنقاض التخلف والجمود .

ومع بداية النصف الثاني من القرن العشرين ، كانت سوق الفكر الاشتراكي هي السوق الرائجة في كل ميدان، فاذا بالاحزاب السياسية المختلفة الاتجاهات ، تتنافس في كل بلد من بلاد العالم ، بخطواتها الاشتراكية ، واذا بهـذه الكلمة ، كلمة «الاشتراكية» تجتاح أفكار القادة الحاكمين، والزعماء السياسيين كي يتقربوا بها الى جماهير الشعـب ، التي لـم تجـد فيما يدعيـه الزعماء والسياسيون مـن اتجاهاتهم الاشتراكية ، الا تضمينا كاملا لمحتوى ما يتوقون اليه من قيام عدالـة اجتماعية ، تتحقق في ظلها مبـادىء الحرية والعدالة والمساواة ، فلا طغيـان ولا احتكـار ولا تسلط ولا استغلال ، ولا تحكم لرأس المـال ، ولا سيطرة للاقطاع . وهكذا فهمت الجماهير معاني الاشتراكية علـى

انها خلاص من عبوديـة الفرد للفرد ، وسير نحـو نعيم العدالة والرخاء .

وقد لا تـلام الجماهير الشعبية في بلاد العالـم ، اذا انساقت بهذا الانسياق العنيف وراء دعاوى الاشتراكية ، لان الداعين اليها من المفكرين والقادة والزعماء ، قد يسروا لعقول ابناء الشعب أن تستسيغ هذه الافكار . بما أحاطوها به من هالات دعائية ، وبما خلعوه عليها من صفات خيالية، فاذا بزمام المبادهة ينتقل الى دعاة الاشتراكية بحيث أصبح كل مـن يقول بالاشتراكية ، معتبرا بلغـة العصر تقدميـا تحرريا ، كما أصبح كل من يحاول مناقشة هذا المذهـب ، ولو مناقشة علمية موضوعية، معتبرا رجعيا تأخريا . وهكذا رأينا دعاة الطرف الآخر خجلين باقوالهم ومناقشـاتهم ، لا يملكون الجرأة الكافية للافصاح عن أفكارهم ، وظل زمام الجرأة أيضا بيد خصومهم الاشتراكيين . وفي هذا ما فيه من تخاذل فكري عقائدي . سيحفظه تاريخ هـذا العصر ، وسيسجل فيه على هؤلاء مسؤولية التقصير الـذي ذهبت ضحيته شعوب كثيرة ، غرر بها اصحاب المذاهب اليسارية المختلفة .

وقد يكون من اتمام تقرير الحقيقة في هذا الموضوع، ان نعيد دعاة الاشتراكية الحديثة الى ثلاثة أصول ، او الى ثلاثة اقسام على الاصح ، بحيث نقرر أن القسم الاول هو

قسم الاشتراكيين المعتقدين، الذين آمنوا بمذهب الاشتراكية عن اقتناع ، فراحوا يدعون اليه ويسعون الى تحقيقه عن نية حسنة لا شك فيها ، وعن رغبة صادقة يحدوها العمل الدائب .

أما القسم الثاني ، فنعتقد أنه هو القسم الذي جعل الدعوة الاشتراكية ، وسيلة ، او مطية لتحقيق غايات مذهبية او سياسية ، لا يبعد أن تكون شيوعية ماركسية ، قد عجزت عن الظهور بثوبها الماركسي الشيوعي ظهورا واضحا ، فخلعت على نفسها ثوب الاشتراكية ، كي تجتاز ظرفا معينا ، لا تلبث بعده أن تحسر قناعها عن حقيقتها أي عندما يواتيها الظرف المناسب ، عملا بالتخطيط الشيوعي اللينيني ، الذي يتفق مع قاعدة : « الغاية تبرر الوسيلة » .

والقسم الثالث من هؤلاء ، يتمثل فيما نرى ، بالانتهازيين الذين لا يحملون عقيدة ، ولا يرسمون خطة ، ولا يتبنون منهاجا ، وانما يسعون للوصول الى مناصب الحكم ، عن طريق انقلابات عسكرية او مؤامرات داخلية ، فيدغدغون افكار الجماهير بما يطلقونه من دعاوى الاشتراكية والعدالة الاجتماعية ، والقضاء على الاقطاع والاحتكار ، وتسلط رأس المال ، فاذا ما بلغوا المناصب التي حلموا بها ، خبطوا خبط عشواء ، بما يصدرونه من قرارات تأميم او مصادرة ، وبما يضعونه من قوانين يسمونها اصلاحا

زراعيا ، وبما يتسلطون بـه على شؤون التجارة والصناعة، فيلغون اليوم ما قرروه بالامس ، ثم يعودون اليـه غدا أو بعد غد ، دون أن ينسوا في خبطهم هذا ما يصطنعونه من مظاهر التمثيل الشعبي ، فيطلقون الوعود حول اقامة حياة ديمقراطية ومؤسسات نيابية دستورية ، حتى اذا صنعوا شيئا من هذا ، صنعوه صنعا مسرحيا ، وأخرجوه اخراجا سينمائيا ، يسترون بـه مظاهر حكمهم الفوضوي الذي يفصل بينهم وبين المذاهب السياسية أو الاقتصادية المعروفة فصلا تاما ، كما يقيم بينهم وبين الشعب وآماله وحقوقه ومطالبه المشروعة اسوارا لا تمت الى المصلحة الوطنية العامة بشيء •

هذه هي الاقسام الثلاثة التي تضم دعاة الاشتراكية ، وواضح أن القسمين الثاني والثالث ، لا يصح أن نضعهما على مائدة البحث في معالجة موضوعية ليسوا هم منها في شيء ، خصوصا واننا تعرضنا الى بحث الكثير من تصرفاتهم المذهبية او السياسية فيما سبق من هذا الكتاب• اما القسم الاول ، وهو قسم الاشتراكيين العقائديين، الذين نطلق عليهم صفة « الاشتراكية الديمقراطية » فهم موضوع بحثنا الآن •

ولا نكران في أن الدوافع الاساسية ، التي قامت عليها الدعوات الاشتراكية الحديثة ، سواء كانت شيوعية

أو ثورية ديمقراطية هي دوافع واحدة تقريبا عند الجميع ؛ فمنذ التطور الصناعي العنيف الذي شهده العالم ، خلال القرن التاسع عشر في قوى الانتاج ، وبروز الآلات الصناعية، التي هددت العمال بلقمة العيش، واغلقت دونهم ابواب الامل ، وجعلت حلول الالة محل اليد الصناعية أمرا مذهلا سد على العمال فرص العمل ، مع ما كان يرافق هذا ، من نظم اقتصادية وسياسية واجتماعية متعصبة ، تقدس حق الملكية ورأس المال، ولا تعنى بحق الفرد كانسان له حق العمل وحق الحياة ــ منذ ذلك الوقت ــ بدأ الصراع الطبقي بين العمال وارباب العمل ، كما بدأ انحسار النظم الرأسمالية عن مواقعها ، هذه النظم التي عجزت قبلا عن فهم واقع التطور ، كما عجزت عن فهم الروابط الانسانية والمادية الصحيحة ، القائمة بين فئة الرأسماليين من جهة ، وفئة العمال والفلاحين من جهة أخرى .

لهذا ، كان طبيعيا جدا ، مع هذه الدوافع ، ومع ما أسلفناه في الحديث من دوافع اخرى ، أن تأخذ التعاليم الاشتراكية ، طريقها في بناء مجتمع جديد ، يقوم على غاية تحقيق العدل الاجتماعي ، وهكذا انطلق الشيوعيون والاشتراكيون الثوريون من هذه الدوافع ، كما انطلق معهم من الدوافع نفسها الاشتراكيون الديمقراطيون .

وتعدد قيام الاحزاب الاشتراكية الديمقراطية في

بلدان كثيرة من بلاد العالم ، ووصل عدد كبير من هـذه الاحزاب الى مناصب الحكم في عدد كبير من البلاد الاوربية والامريكية ، ولا شك في أن اكثرية هذه الاحزاب كانت دائبة الحرص على تحقيق عدل اجتماعي مرموق ، لكنها حتى الان، وبالرغم من قيام حكم اشتراكي ديمقراطي سليم، في بلاد أوربية راقية ، كالبلاد الاسكندينافية في شمال أوربا ، وكسويسرة وبريطانيا وغيرهما ، فان النظام الاشتراكي لم يستطع أن يحقق التقدم الموعود ، كما لم يستطع أن يجعل من الاشتراكية ، طريقا مضمونة لتحقيق العدل الاجتماعي .

ويبدو أن معظم الاسباب التي ادت الى فشل الاشتراكية الشيوعية ، والاشتراكية الثورية ، قد ادت ايضا هي نفسها الى فشل الاشتراكية الديمقراطية ، ذلك لان المنطلقات الاساسية التي كانت واحدة تقريبا عند هؤلاء جميعا ، قد حملت الى كل فريق منهم بذور الفشل المؤكد ، ورغما عن الافتراق الكبير القائم بين الثوريين والديمقراطيين من حيث اعتماد اولئك على القوة والثورة ، واعتماد هؤلاء على الاسلوب الديمقراطي التطوري، ورغما عن أن اسلوب الديمقراطيين يبقى ادعى الى البقاء والاستمرار والنمو ، فان بذور الفشل المشار اليها لم تتح للاشتراكيين الديمقراطيين أن يقطعوا شوطا حسنا على طريق العدالة الاجتماعية المنتظرة .

ومن نقاط الافتراق الكبرى بين الشيوعيين والاشتراكيين الثوريين من جهة ، وبين الاشتراكيين الديمقراطيين من جهة أخرى ، اصرار الاشتراكيين الديمقراطيين على المفهوم السليم لمعنى الديمقراطية التي تعرف بانها حكم الشعب بالشعب وللشعب ، فكل ما تقرره اكثرية الشعب عن طريق النظام النيابي يجب أن يكون هو السائد مع احترام حقوق الاقلية، وهذا ما لا يقره الثوريون.

وكذلك تقرر الاشتراكية الديمقراطية ان لكل انسان حقه الكامل في حياة خاصة محمية من استبداد الدولة ، وهذا عكس ما يقرره اولئك ، وكذلك تصطدم الثورية بالديمقراطية اصطداما واضحا حيال الاعتراف بحق المواطنين بالحرية السياسية ، وحرية الرأي والفكر ، وحرية الاجتماع والتربية والدين ، بل هنالك شيء آخر على جانب من الاهمية ، هو اعطاء الحق في انشاء اكثر من حزب واحد اشتراكي او غير اشتراكي ، كي يكون مجال المعارضة مفسوحا امام جميع المواطنين مهما كانت ميولهم السياسية والاجتماعية ، وهذا ما لا يقره الشيوعيون والاشتراكيون الثوريون بحال من الاحوال .

ويعتقد الاشتراكيون الديمقراطيون أن كل ديكتاتورية مهما كان نوعها ، وسواء كانت ديكتاتورية فرد او حزب

أو جماعة ، تشكل خطرا جسيما على حرية الشعوب ، بل على السلام العالمي كله .

أما في المجالات الاقتصادية فان الاشتراكيين جميعا يتلاقون عند نقاط اساسية هامة ، فهم متفقون تقريبا على تحقيق نظرياتهم عن طريق الملكية الجماعية ، والرقابة الجماعية لعناصر الانتاج والتوزيع ، كما يتفقون ايضا على جعل ملكية المصانع والمنشئات الكبيرة والأراضي الزراعية والمناجم وخطوط السكك الحديدية وما اشبه ذلك ملكا جماعيا ، تملكه الدولة في النظام الشيوعي ، ويملكه الشعب في النظام الاشتراكي الديمقراطي ، وواضح أن الدولة هي المالك الحقيقي في كلا الحالين ، أي سواء كان التملك باسم الدولة أم باسم الشعب ، يضاف الى هذا أن الاشتراكيين جميعا متفقون على ازالة الطبقة الرأسمالية وتحطيم نفوذها، وعلى اعتبار شخصية الجماعة فوق شخصية الافراد ، زاعمين في هذا أن هدف الاشتراكية ، هو اسعاد الجماعة دون النظر الى مصالح الافراد اطلاقا .

رغما عن هذا كله ، أي رغما عن نقاط التلاقي ، وعن نقاط الافتراق القائمة بين الشيوعيين والاشتراكيين الثوريين ، وبين الاشتراكيين الديمقراطيين ، فان الفشل كان حليف هؤلاء جميعا ، سواء كانوا شيوعيين أو اشتراكيين ثوريين او ديمقراطيين ، واذا كان هنالك تقدم

اجتماعي ملحوظ في مختلف بلاد العالم ، قد بدا في اشكال نسبية تختلف صعودا وهبوطا بحسب قرب او بعد كل شعب عن مراحل تطوره الطبيعي وعن صلاته الحضارية مع شعوب اخرى ، فان الاشتراكيين على اختلاف اشكالهم ونظمهم ، لا يستطيعون أن يحتكروا لانفسهم فضل اثارة النقمة العامة على الرأسمالية المستغلة ، كما لا يستطيعون أن يدعوا بانهم هم اصحاب الفضل فيما احرزه العالم من وعي انساني واجتماعي جديد . بل ان تطور الفكر الانساني تطورا طبيعيا ، وسيره على درب السمو الاجتماعي والاخلاقي الحديث ، يعتبر وليد احقاب زمنية طويلة ، كان فيها للاشتراكيين حلقة واحدة ، من حلقات الدفع التي ساهم بها بنو البشر جميعا على اختلاف مراتبهم الفكرية أو الاجتماعية .

قد يظن البعض من الناس أن تأميم المرافق العامة للشعب ، وجعلها تحت اشراف الدولة او ضمن ملكيتها ، بغية حماية المواطنين من استغلالهم عن طريق احتكار هذه المرافق العامة ... قد يظن البعض ، أن هذا من صنع الأشتراكيين ، غير أن الواقع ينفي هذا الزعم نفيا مطلقا ، لان عامل التطور الطبيعي ، وارتفاع مستوى الادراك الجماعي عند البشر عامة ، هو الذي ادى الى تحقيق هذه الاغراض الاجتماعية الكبرى ، ويكفي للدلالة السريعة على

هـذا ، أن دولة روسيا القيصرية التي كان نظامها معتبرا من أعرق الانظمة في الاقطاع والاستغلال والسيطرة ، كـانت تملك الكثير من المرافـق العامـة كمصادر المعادن والمياه والكهرباء والسكك الحديدية ، وكانت تضعها في خدمـة الشعب كله ، فهل كان هذا الذي صنعته روسيا القيصرية ، وليد الفكر الاشتراكي أم كان وليد التطـور الطبيعي في المفاهيم الانسانية والاجتماعية ؟

بعد هذا نأتي الى نظرية تأميم وسائل الانتاج ، التي بناها الاشتراكيون على نظرية الدخل المتضائل التي وهموا معها بأن اجور العمال ستبقى في حالة تناقص او ركـود ، مع أن الحقائـق التاريخية ، قد أثبتت أن ارتفاع اجـور العمال كـان يتناسب طردا مع زيـادة الانتاج الزراعـي والصناعي ، ولم يثبت ابـدا أن ثمرات الزيادة كانت مـن نصيب المتمولين دون العمال ، بل كانت دائما من نصيـب الفريقين معا ، وهذا يخالف ما ادعاه كارل ماركس من أن اجور العمال لم تكن لتتعدى الضروريات التي تحفظ الروح من مفارقـة الجسم !

ومن الدلائل الاخرى . على كون التطور الطبيعـي وسمو الوعي الاجتماعي والانساني ، هما دعامة التقـدم الحقيقي مـا نراه لـدى دول كثيرة ، تسعى الى تحقيـق العدل الاجتماعي ، وتحـاول في الوصول اليه محـاولات

محمودة ، دون أن تكون دولا اشتراكية . ودون أن تتبنى مذهبا من المذاهب اليسارية الجديدة .

أليس هنالـك دول كثيرة . ليست اشتراكيـة ولا يسارية، ولكنها أقامت في بلادها نظام الضرائب التصاعدية. الذي لا يزال يظنه اقتصاديون كثر . بانه وسيلة من وسائل تحقيق العدل الاجتماعي ؟

أو لم تلجـأ هذه الدول الى وضع انظمة وقوانـين اقامت بموجبها مؤسسات عامة للضمان الاجتماعي ، كـان مـن شأنها تأمـين المواطن في حالـة العجز او المرض او الشيخوخـة ؟

ألم تلجأ دول كثيرة ذات انظمة حرة غير يسارية ، الى توفير العناية الصحية والسير بها على مراحل معقولة ، أو لم تلجأ هذه الدول الى توفير التعليم المجاني لابناء الفقراء والاغنياء على السواء ؟

إذن ، ليست الاشتراكية ـ كما يزعم الاشتراكيون ـ الوسيلة الوحيدة لتحقيق العدل الاجتماعي ، بل ان كـل دولة ، وكل شعب يملك قدرا حسنا من النضج الفكـري والوعي الانساني والادراك الاجتماعي ، يستطيع أن يختار النظام او يضع المنهاج الذي يأتلف مع ماضيه وحاضـره ، ومع تراثه ومعتقده، والذي ينسجم مع خصائصه الحضارية

والتاريخية ، كي يقيم بموجبه نظاما اجتماعيا يقضي به على الجهل والفقر والمرض ، ويحقق بـه عدلا اجتماعيا حسنا ، وجدير بالعرب وبالمسلمين أن يكونوا في مقدمة الامم التي يجب عليها أن تحجم عن الاخذ بالمذاهب الاجنبية المختلفة ، سواء كانت شيوعية أو ثورية أو ديمقراطية ، لان الشعوب الاسلامية ، تملك من تراثها الحضاري الضخم ، ومن طينة الاسلام السامية ومن مبادئه الخلقية والانسانية والاقتصادية الرفيعة ، ما يضع بين أيديها جميع عناصر التقدم والبنـاء ، وما يخولها حق اقامة مجتمع عقائدي مثالي ، كان له نظيـر ومثال في فترات عديدة من تاريخ الامة الاسلامية، وسيكون قدوة مرموقة في مستقبل الانسانية السائرة •

لقد رفضنا في فصولنا السابقـة من هـذا الكتاب ، مذهب الاشتراكية الشيوعية لانـه مذهب مادي الحـادي يحارب المثل والاديان والفضائل والاخلاق ، ورفضنا مذهب الاشتراكية الثورية لانه مذهب دعاوة فارغة ، يعتمد علـى الانتهازية ، ويصادر حرية الفرد وكرامة الانسان ، ويطبق ببراعة معظم النظريات الشيوعية المـدمرة ، ونرفض الان مذهب الاشتراكية الديمقراطية على مـا فيه من مراعـاة واضحة لبعض الجوانب الانسانية ولمفاهيم الحق والحرية ، وعلى ما نعتقده من سلامـة نية الكثيرين من القائلين بـه والداعين اليه ، ••• نرفضه لانه مذهب فاشـل لم يستطع أن يرفع بناءا او يحقق تقدما •

نرفضه لانه انطلق انطلاقا خاطئا . وذلك حين ادعى ادعاءا جماعيا وسار ـ دون أن يدري ـ على طريق فردي واضح .

ألم يقل مذهب الاشتراكية الديمقراطية ، بتوزيع ثمرات الانتاج على قاعدة : « لكل بقدر انتاجه » . مخالفا بذلك مذهب الشيوعية الذي يعتمد في التوزيع على قاعدة: « من كل طبقا لقوته ، ولكل طبقا لحاجته » ؟

المعنى عند الشيوعيين . أن حق الفرد في الاستهلاك يتوقف على قيامه بواجب العمل . أي من لا يعمل لا يأكل ، ثم اذا عمل فانه لا يحصل على ما يكافيء جهده وعمله ، بل على ما يسد حاجته كي يقدم الفائض للمجموع .

اما المعنى عند الاشتراكيين فانه ينطلق من تفكير فردي واضح . فهم حين يقولون : « لكل بقدر انتاجه » يكونون قد جعلوا لجهد الفرد اعتبارا ملحوظا ولو كان محدودا ، واننا نستطيع أن نلاحظ التناقض بسهولة ، حين تتساءل : كيف يوفق الذين ينادون بالغاء الملكية ، وبتأميم وسائل الانتاج ، وبجعلها ملكا جماعيا ... كيف يوفقون بين هذا، وبين حق الفرد بامتلاك ثمار عمله كله ؟ انهم الغوا الملكية الفردية من جهة ، ثم ملكوها للفرد من جهة أخرى !

كيف يفسرون قولهم : «حق الجماعة فوق حق الافراد»

حين يضعون وسائل الانتاج في خدمة الافراد ، لكي يستثمرها كل فرد بحسب طاقته وقوته ؟ .

ألم يصبح في هذا « حق الفرد فوق حق الجماعة » ؟

وما نقوله عن الناحية الاقتصادية نقوله عن الناحية الاجتماعية ، فالاشتراكيون الديمقراطيون ، يقولون بحق الانسان في حريته الفردية ، وفي حياة خاصة تكون بمنجاة من استبداد الدولة .

فكيف يستطيع الاشتراكيون الديمقراطيون أن يوفقوا بين هذا ، وبين اصرارهم على جعل حق الجماعة فوق حق الافراد ؟

أليس معنى الحرية الفردية، أن يشعر المواطن بوجوده المستقل وبسلطته التي لا يحدها الا القانون العام ؟

أو ليس معنى المساواة الجماعية ، أن لا يكون هناك حرية فردية اطلاقا .

اذن ، نحن في موضوع الحرية الفردية أمام امرين اثنين : أما أن يكون الاشتراكيون ، اشتراكيين جماعيين بالفعل . وحينئذ لا مجال للحرية الفردية مطلقا فيما بينهم ، واما أن يكونوا مؤمنين بالحرية الفردية ايمانا صادقا ، وحينئذ لا يكونون اشتراكيين !

ونرفض الاشتراكية الديمقراطية ، لانها في تناقضها بين حق الفرد وحق المجموع ، قد قتلت جهد الافراد وقضت على طموحهم في حقل التثمير والانتاج .

وواضح أن اكبر نكبة تمنى بها الانسانية ، هي موت الطموح نحو العمل في نفس الانسان ، ذلك لان هذا سيعود بافدح الاضرار على مستوى الانتاج العام ، وحين ينخفض مستوى الانتاج سيؤدي الى نكبات اقتصادية لا حد لها ، وغني عن البيان مرة أخرى ، أن نقول ان الاتحاد السوفياتي ، ما كان ليعاني هذا النقص في محصولاته الزراعية ، التي اضطر معها الى شراء حبوبه من البلاد الخارجية، لولا موت الطموح الفردي عند الفلاح الشيوعي، مما حمل القادة السوفيات على الانكفاء عن كثير من نظرياتهم الجماعية ، لكي يعودوا الى محاولات تشجيع الجهد الفردي ، بغية السعي وراء زيادة الانتاج .

ثم ما لنا نذهب بعيدا في الاستدلال على فشل النظريات التي تستهين بجهد الفرد ، وأمامنا تجربة من أكبر تجارب العالم ، هي التجربة البريطانية .

ان بريطانيا ، تعتبر من أكثر الدول اهتماما بجهد الفرد وحرصا على تنشيطه ، ولهذا ظنت أن نظام الضرائب التصاعدية ، الذي يترك للفرد حرية العمل ويفتح امامه

ابواب الطموح ، ثم يقاسمه حصيلة ثمراته ، بنسبة مئوية ترتفع حتى تبلغ أكثر من تسعين بالمئة من ارباح الفرد ، ظنت أن هذا النظام يعتبر محققا للغايتين معا، غاية ترك باب العمل والاستثمار مفتوحا أمام جهد الفرد من أجل الحفاظ على رفع مستوى الانتاج القومي العام ، وغاية مشاركته بحصيلة اتعابه ، لكي تضعها في خدمة المجموع ، سعيا وراء تحقيق مبدأ العدالة الاجتماعية !

ظنت بريطانيا هذا ...

لكنها الآن ، وبعد تجربة طويلة الامد ، ثبت لها أن هذا النظام الضرائبي ، قد فشل في تحقيق غرضه ، وبالرغم من أن عددا كبيرا من دول العالم ، أصبح يعتبر نظام الضريبة التصاعدية ، نظاما تقدميا مثاليا يسير فيه المتبنون له ، على دروب العدالة الاجتماعية باعتزاز وفخر ، باعتباره حلقة كبرى من حلقات الوعي والتقدم ، فان بريطانيا قد ثبت لها الآن عكس هذا الذي يتوهمه الاخرون !

يقولون في بريطانيا الآن : ان نظام الضريبة التصاعدية قد ترك آثارا مضرة بمصلحة الانتاج القومي ، ويقولون : ان نشاط المواطنين المنتجين ، كان يتبلد عن متابعة العمل المنتج ، حينما تصل نسبة الضريبة الى مراتبها العليا ، ويقولون : ان شعور المواطن البريطاني بأن تسعين بالمئة من

جهده سيذهب الى غيره او الى الدولة ، قد اقعده عن النشاط ، وأودى به الى التكاسل .

يقولون هذا في بريطانيا الان ...

ويقولون أيضا : انهم بدأوا يفكرون ويدرسون لكي يصلوا الى أنظمة جديدة تدعم زيادة الانتاج، وتحفظ نشاط الفرد .

وقالوا فيما قالوه : ان علماء الاقتصاد ، وفلاسفة المال ، وأساطين الاجتماع ، قد بدأوا بالتفكير الجدي لصرف النظر عن نظام الضرائب التصاعدية ، كي يستمر الفرد بانطلاقه .

وقالوا أيضا : ان هنالك مشروعا فكريا بضريبة جديدة ، يسمونها مبدئيا « ضريبة الشراء » ...

لم يتبلور بعد ، شكل هذا النظام الجديد الذي لايزال دائرا في محيط البحث والدرس والمناقشة ، لكن خطوطه الاولى تدل على أن الضرائب التي تشل نشاط الفرد ستزول ، وسيحل محلها ضريبة جديدة لا تؤخذ من المواطن الا في حالة شرائه حاجات استهلاكية تزيد عن الحد الذي يعينه القانون .

معنى هذا أن جهد الفرد ذو اثر عميق في تنمية الانتاج،

وفي السهر على زيادته ، وحيث أن الاشتراكية الديمقراطية، لا تهتم بالجهد الفردي ولا تكترث بأثره ، بل وتتناقض في مفهوم الفردية والجماعية حياله ، فان مذهب الاشتراكية الديمقراطية مرفوض •

ونرفض الاشتراكية الديمقراطية ايضا ، لانها حركة دولية ، تتجاوز الاديان والقوميات والاوطان وتتجاهل روابط العقيدة والتاريخ • وهي وان كانت لا تمنع على الراغبين بالتدين ممارسة شعائرهم الدينية ، الا أنها تهدف الى اقامة الدولة الاشتراكية العالمية الواحدة التي لا يمكن الا أن تكون علمانية متحررة من كل دين ، ونحن كعرب حملنا رسالة الاسلام الى الانسانية ، لا نستطيع أن نتخلى عن هذه الرسالة ، وكذلك لا نستطيع كمسلمين مؤمنين الا أن نظل اتباعا لرسالة الاسلام ، التي آمنا بها رسالة سماوية خالدة ، كانت وستظل مصدرا اساسيا لكل دستور وتشريع وقانون ونظام • ولهذا يبقى الاسلام في نظرنا ، بل في ايماننا ، النظام الاممي الامثل ، الذي يؤهله شموله وسموه وحقيقته ، لكي يؤلف الامة الانسانية الواحدة ، التي يجمع بين ابنائها رباط مقدس ، ونظام الهي رفيع •

وفضلا عن أن الاسلام لا يسمح للمسلمين بالانضواء تحت لواء علمانية عالمية ، فان هنالك أسبابا سياسية واجتماعية اخرى ، يختلف حولها ، القائلون بالدولة العالمية

الواحدة اختلافا كبيرا ، قد يؤدي الى فتن وحروب، تجعل الحديث عن السلام العالمي اسطورة خيال !

ان حقائق التجارب الاشتراكية التي مر بها العالم في القرن العشرين ، دلت على أن كل بلـد نادى بالاشتراكية خلال هذا القرن ، قد افترض انه هو البلد الذي يجب ان يكون مركز الاشتراكية ، وانـه هـو الذي يجب عليه أن يقودها ويتولاها ويرعاها ، حتى تشمل العالم كله ، بـل فوق هذا جعـل من نفسه وصيا على جميع بلاد العالـم . واوجب عليهم أن يتبعوه ويخضعوا لقيادته .

نشأ عن هذا الواقع الذي لا ينكره أحد ، خـلاف دولي جديد ، لـم يكن واردا بحسبان علماء الاشتراكيـة وفلاسفتها ومنفذيها ... بل نشأ عن هذا ايضا سبب جديد من الاسباب التي تؤدي عادة الى قيام حروب عالمية .

وكدليل على هذا ، نشير بايجاز ، الى الصراع الذي نشب ومـايزال ينشب بين اصحـاب المذاهب الاشتراكية المختلفـة .

ففي محيط الاشتراكية الشيوعية ، كان من المعروف عند جميع شيوعيي العالم ، منذ قيام الثورة الشيوعية في روسيا عام ١٩١٧ ، أن موسكـو أصبحت مركز الشيوعية العالمية وقائدتها الوحيدة لتحقيق شيوعية العالم ، وبالفعل

رأينـا جميع الاحزاب الشيوعية في بـلاد الدنيا ، تديـن بالطاعة والولاء لموسكو ولحكومـة الاتحاد السوفياتي ، كافرة بولائهـا لوطنها وطاعتها لقوانـين بلادها ، وكانت حكومة موسكو بالمقابـل ترعى جميع شيوعيي العالـم ، وتعتبرهم افرادا من شعبها العالمي •

ولكي نضع النقاط على الحروف في هـذا الموضوع الخطير ، يجب علينا أن نستشهد باقوال زعماء الاشتراكية الشيوعية •

ففي سنة ١٩٢١ قـال لينـين : « ان كـل الاحزاب الشيوعية في شتى انحاء العالم ، يجب أن تكون احزابـا شيوعية لحما ودما، ومعنى هذا آنه يجب على هذه الاحزاب أن تعتبر كل دفاع عن روسيا دفاعا عن هذه الاحزاب » •

وقال ايضا سنة ٩٢٢ : « يجب أن يفهم كل شيوعـي يعمل خارج بلادنـا أن حزبنا الماركسي هـو حامي حمى الشيوعية الدولية ، ومن ثم يتعين على كل شيوعي خـارج بلادنا أن يلتزم بما يضعه حزبنا من مبادىء •• فهذا الحزب هو الذي يعمل على تحقيق الشيوعية الدولية » •

أما ستالين فقد قال عام ٩٢٩ : « الشيوعي المخلص في اي دولة من دول العالم هو الشخص الذي يعلن دائما ولاءه للاتحاد السوفياتي » •

وقال مالنكوف سنة ٩٣٦ : « نحن لا نسمح للاحزاب الشيوعية ، خارج بلادنا باتخاذ أية اجراءات قد تسيء الى الاتحاد السوفياتي ، ذلك أن حزبنا هو الذي يوجـه هذه الاحزاب » .

ويبدو أن الاحزاب الشيوعية في العالم ، كانت مقتنعة بالانضواء تحت علم الاتحـاد السوفياتي ، باعتباره قلعـة الشيوعية العالمية ، وكانت مستمرة بتقديم ولائها له، كافرة بولائها لوطنها ، ولما تشتمل عليه هذه الاوطان من دساتير وقوانين ومثل واعراف .

استمر هذا الوضع حتى عام ١٩٤٧ حيث بدأت الدول الشيوعية التي قامت في أوربا بمؤازرة الاتحاد السوفياتي عقب انتهـاء الحرب العالمية الثانية ، بالنفور من وصايـة روسيا ، وبمحاولة التملص من سيطرتها التي كانت تفرضها على الدول الشيوعية عن طريق مجلس « الكومنفـورم » وظهر اول تصدع بهذا المجلس حين اعلنت دولة يوغوسلافيا برئاسـة المارشـال تيتو انفصالها عن « الكومنفـورم » واستقلالها عن التبعية السوفياتية ، معلنة عام ١٩٤٧ ولاول مرة في تاريخ الشيوعية ، قيام شيوعية محلية اقليمية ، لا ترتبط برباط الولاء مع دولة اخرى .

واستمر الصراع بـين موسكـو والدول الشيوعية

الحديثة ، حتى تجسد أخيرا بالصراع الاكبر بين الاتحـاد السوفياتي والصين الشعبية ، الذي بلغ ذروة الخصومـة ، وذلك حين رأينا كلا من الدولتين الكبيرتين تتهيأ للتحالف مع اعدى اعداء الشيوعية ضد رفيقتها في العقيدة الشيوعية المادية ، وسبب هذا على التحقيق خلاف على زعامة العالـم التي هيأت موسكو نفسها لها ، فجاءتها الصين كـي تنتزع منها هذه الزعامة متسلحة بسلاح الخلاف العقائدي المزعوم، الذي يضمر تحته مطامع سياسية واقليمية، اصبحت معروفة عند الجميع •

ونشهد مثيلا مصغرا لهـذا الصراع عند الاشتراكيين الثوريين وخصوصا في البلاد العربية ، بحيث رأينا مذهب الاشتراكية لا يجمع بين بلادهـم ، كما لم تجمع بينهـم مفاهيم الثورية ، لان كل فريق لا يرضى بأن يكون تابعا ، ويسعى الى أن يكون متبوعـا فاحتدم الصراع ، وتعـذر الاتفـاق •

فاذا كان هذا هو حال الاشتراكيين الشيوعيين ، وهذا هو حال الاشتراكيين الثوريين فهل يسـوغ في عقولنا أن نرى يوما مـا الاشتراكـي البريطاني خاضعـا لسيطـره الاشتراكـي الامريكي ، او أن دولة السويد الاشتراكيـة مستعدة للسير خلف الاشتراكية البريطانية •

انه ضرب من الوهم ، ثبت بعـد التجربة انه متعـذر

التحقيق ، وأنه سيؤدي الى فتن وحروب ، فما أغنانا عن سلوك هذا المسلك الوعر !

بعد هذا نحب أن نقول : اننا مهما أحسنا الظن بالاشتراكية الديمقراطية ، ومهما أشدنا ببعض جوانبها الانسانية ، تبقى في نظرنا شعبة من شعب المذهب المادي الالحادي الذي نحاربه وننكره . ومهما قال القائلون بانهم اشتراكيون معتدلون ، او اشتراكيون قوميون، او اشتراكيون متدينون فان الحقيقة تصرخ في وجه كل هذه الادعاءات ، لتؤكد أن الاشتراكية بمجموعها ، اصبحت مذهبا فوضويا مضطربا ، له ألف تعريف وتعريف ، وله ألف لون ولون ، بل حتى علماء الاشتراكية وفلاسفتها ، عجزوا عن ايجاد تعريف علمي موحد للاشتراكية ، فكيف ننتظر هذا ممن يتطفلون عليها ، أو يتصدون لتبنيها وهم لحقيقتها جاهلون ؟

قلنا ان الاشتراكية الديمقراطية ، ليست سوى شعبة من شعب المذهب المادي الالحادي ، الذي يتربع اتباعه حول مائدة كارل ماركس ، ثم يصطنع كل منهم لنفسه ، تفسير المبادىء الماركسية بما يحلو له من اختيار وتفنيد ، وقد يكون مفيدا أن نشير الى اقوال توماس نورمان زعيم الحزب الاشتراكي الامريكي، الذي يعتبر من اكثر الاحزاب الاشتراكية في العالم ، حرصا على الديمقراطية ، وتفهما

للعدالة الاجتماعية، واقرارا بحق التطور الطبيعي والاعتدال الحسن ، لنرى كيف يستمسك هذا الزعيم الاشتراكي المعتدل بتعاليم كارل ماركس وكيف يهاجم الشيوعية حين يقول : « تدعي الشيوعية كذبا انها تشاطر الاشتراكية تقاليدها ، والواقع انها انتزعت جانبا من تلك التقاليد ، دون أن تتبينها ، وبنت عليها فلسفة غير جديرة بالروح الماركسية » .

أي ان الشيوعيين والاشتراكيين الثوريين ، ليسوا جديرين بتبني الروح الماركسية ، ولكن توماس نورمان وحزبه الاشتراكي الديمقراطي ، هو الجدير بالروح الماركسية وبتبنيها .

اذن كلهم ماركسيون ...

وكأن الماركسية ، ليست هي البيان الشيوعي ، او ليست هي الثورة العنيفة المدمرة الداعية الى تخريب كل شيء ، والقضاء على كل فضيلة .

هذه هي الاشتراكية الديمقراطية ، بل هذه هي الاشتراكية كلها ، شيوعية او ثورية او ديمقراطية ، وهي كما رأينا ، لا تحقق تقدما ولا تقيم بناءا ، بل ظلت وستظل حلقة في سلسلة التجارب البشرية ، كان نصيبها الفشل المريع ، في مجال الغايات الانسانية الكبرى ، ولم تستطع

أن تثبت وجودها الا في مجالات ضيقة عرضنا اليهـا فيما سلف من هذه الفصول •

نعود فنقول ان بناء المجتمع الافضل ، ممكن عن طريق الخطوط الاجتماعية والانسانية العادلة التي قررها الاسلام، فهي تحقق للناس غايات الخير والحق والجمال ، وتوفر لها أفضل الظروف لتحقيق العدالة الاجتماعية المرتقبة، وسنقدم في الفصل القادم من هذا الكتاب شيئا من مبادىء الاسلام الرفيعة ، التي يجب على القادة والزعماء والمصلحـين ، أن لا ينقطعوا عن الاستهداء بنورها ، لتحقيق النجاح الاعم ، وذلك ليس من اجـل العرب والمسلمين وحدهم ، بـل من اجل الغايات الانسانية واغراضها الشاملة الكبرى •

الفصل الرابع

العدالة الاجتماعية

العدالة الاجتماعية

ليست اشتراكية ، ولا رأسمالية ، ولا ديموقراطية
هـي « اسـلام » بشمولـه وعـدله وانسـانيتـه

من أخطر ما منيت به مفاهيم العدالـة الاجتماعية في هذا الزمن ، أنها كانت صيدا ثمينا لدعاة المذاهب اليسارية الجديدة ، شيوعية كانت أم اشتراكية ، بل ان مـن أوجع ما منيت به هذه المفاهيم ، أنها كانت برقعا أخـاذا ، يستتر خلفه اولئك الدعاة، لينشروا اشتراكياتهم من خلال شعارات العدالة الاجتماعية المحببة ، وضمن التغني بما تحتوي عليه من خير اجتماعي يستهدف مصلحة المجموع .

فالاشتراكيون عموما ، يتبارون في ادعاءات الخطـو نحو تحقيق العدل الاجتماعي، والاشتراكيون عموما يتغنون برفع الظلم عن المظلومين ، وبالسعي لرفع الحيف عن الفقراء والفلاحـين والعمال الكادحـين ، والاشتراكيون عمومـا ينددون بالاحتكار والاستغلال والاقطاع وتسلط رأس المال، ولكن الاشتراكيين.عموما يبقون من حيث التطبيق العملي،

الذي ترتقبه جماهير الناس المتعطشة لرؤية موازين العدل قائمة على صخرة الحقيقة ... يبقون بين ثلاث فئات هي :

١ ــ فئة الاشتراكيين الشيوعيين الذين يحسنون الهدم ، هدم كل شيء ، ويعجزون عن بناء أي شيء .

٢ ــ فئة الاشتراكيين الثوريين الذين يتخبطون على دروب الانتهازية التي لا تعتنق مبدءا ولا تسير على خطة .

٣ ــ فئة الاشتراكيين الديمقراطيين ، الذين تتوازعهم الميول ، وتفرق بينهم الاتجاهات ، بينما يقتل نشاطهم الزمن، ويضعهم بين يدي تراخ وفوضى وفشل .

وبين هذه الفئات الثلاث ، او هذه الدروب المتلاقية المتضاربة ، نرى المفاهيم الصحيحة ، والمعاني السليمة لحقائق العدالة الاجتماعية ، صريعة غدر او ضحية انتهاز ، أو خدينة فشل .

هذه هي الحقيقة ، مهما حاول أن يغطيها المغرضون ، وهذا هو الواقع المؤلم مهما حاول طلاءه المستغلون ، ونظرة واحدة سريعة ، يلقيها المرء على كل البلاد التي تتبنى هذه النظم ، يخرج منها بنتيجة صحيحة ، يدل عليها ما نراه لدى هؤلاء من فساد الحكم وفوضى الادارة ونقمة الناس وبروز معاني اليأس .

هناك ناحية واحدة هامة ، نجح بها اليساريون عموما نجاحا باهرا ، ومن حق التاريخ علينا أن نعترف لهم بهـذا النجـاح .

انهم نجحوا بايهام الناس ، أن كل عمل اصلاحي ، هو عمل اشتراكي ، وانهم نجحوا باستغلال كل عمل تقدمي . ليوهموا الناس بانه من صنعهم واخراجهم .

ونعترف أيضا ـ ولسوء الحظ ـ أن اكثر خصـوم المذاهب اليسارية قد ذهبوا ضحية هذا الوهم ، وانزلقوا في بحران ذلك الصنيع .

أنت ترى ـ مثلا ـ أن الكثيرين من الناس ، يظنون بأن من « الاشتراكية » أن تؤمم الدولة المرافق العامـة ، كخطوط المواصلات والبريد والسكك الحديدية ومؤسسات الماء والكهربـاء ، وأن تضعها بين يـدي الشعب بالاثمان المعقولة التي لا يسيطر عليها احتكار ، مع ان هذا ليس من الاشتراكية في شيء ، بل هو من التطور الطبيعي الـذي يستهدف الوصول الى تحقيق العدالة الاجتماعية ، ولقـد ضربنا فيما سبق مثلا على هذا ، بروسيا القيصريـة التي كانت تؤمم هذه المرافق قبل سيطرة الشيوعيين على روسيا ، وقلنا ان عهد القياصرة هذا ، لم يكن عهدا اشتراكيا ، بـل كان عهدا قيصريا ، فكيف وقع ـ اذن ـ خصوم المذاهب اليسارية ، بهـذا الخطأ ، وكيف استساغـوا أن يلصقوا

بمنجزات الاصلاح الاجتماعي ، صفة « الاشتراكية » التي تحمل في طيات اسمها ، اشباح دعوات هدامة ونظريات فاسدة ، مع أن شعار العدل الاجتماعي له روحه ونقاؤه وسموه ، الذي لا تستطيع أن ترتفع الى مستواه جميع الاثواب الاشتراكية المختلفة الاصباغ والالوان ؟

كيف وقع خصوم المذاهب اليسارية بهذا الخطأ ، وكيف استساغوا أن يلحقوا بالعدل الاجتماعي ما هو منه براء ؟ •

انها هي النجاح اليساري ، الذي تغلغل الى افهام الناس ليوهمهم أن هذا الاصلاح هو اصلاح اشتراكي •

وما نقوله عن تأميم المرافق العامة ، نقوله عن اصلاحات اجتماعية أخرى ، فحق العمال ــ مثلا ــ في زيادة اجورهم ، وفي مطالبتهم بحقوقهم ، وفي منع استغلالهم او التسلط عليهم ، حق اجتماعي سليم ، وليس حقا اشتراكيا ، كما يظن الكثيرون من الناس •

ومثل آخر : يظن بعض الناس أن نظام الضريبة التصاعدية الذي اعتمدته دول كثيرة كي تحول دون تضخم أرباح الافراد على حساب المجموع، يظنونه نظاما اشتراكيا، مع أنه نظام تطوري طبيعي فرضه ارتفاع مستوى الادراك الاجتماعي عند الشعوب ، كما فرضه الوعي الخلقي والانساني ، وكدليل على هذا نضرب مثلا بنظام الضريبة

التصاعدية المفروض في بريطانيا ، فهذا النظام لم تفرضه حكومة اشتراكية ، وانما فرضته لاول مرة حكومة المحافظين ، التي لا يوجد بينها وبين المذاهب الاشتراكية أي صلة أو نسب ، ثم طرأت عليه تعديلات كانت تفرضها ظروف التطور الاجتماعي ، لا ظروف المذهب الاشتراكي ، كما أن عدد الدول التي تأخذ بهذا النظام أصبحت أكثر من أن تعد ، مع انها لا تعتنق الاشتراكية كمذهب ونظام ، بل هي تستجيب لحاجات الوعي والتطور فحسب .

نريد أن نقول : ان الاشتراكية ، بألوانها المختلفة ، تنطلق من أصول واحدة لم تمنعها من أن تتفرق شيعا واحزابا ، وهذه الاصول فيها الكثير من الخير ، وفيها الكثير من الشر ، ولقد اختلط خيرها بشرها ، وغثها بسمينها . حتى أصبحت هذه الاصول أشبه ما تكون بالثوب المهترىء الممزق ، المتضارب الالوان والاصباغ ، الذي لا يصلح أن يكون قدوة ، ولا أن يحتذى كمثال .

ولهذا بات لزاما على قادة الاصلاح الاجتماعي أن يقيموا الحد الفاصل بين الصالح والفاسد لكي لا يختلط الخير بالشر ، وأن يجردوا دعوة الاصلاح الاجتماعي ، بقيمها الرفيعة واهدافها السامية ، من فوضى المذاهب اليسارية المتطاحنة ، وان يحفظوا لها رونقها وبهاءها، الذي يساء اليه أبلغ اساءة ، حين يوصف بانه اشتراكي ، مهما

تضمن هذا الوصف من اعتدال آو حيطة •

الاشتراكية والمذاهب اليسارية كلها، شيء، والاصلاح الاجتماعي شيء آخر •

وحركات التهديم أو الانتهاز أو الفشل شيء، وحركات تحقيق العدالة الاجتماعية شيء آخر •

ولهذا يخطىء من يقول ان الاشتراكية مفيدة في كذا، ومضرة في كذا • ويخطىء من يقول ان الاشتراكية مقبولة من ناحية كذا ، ومرفوضة من ناحية كذا ، فتجزئة المذهب ليست واردة اطلاقا ، خصوصا وأن الاصول التي استندت اليها كل الاتجاهات الاشتراكية كانت أصولا هدامة أو فاسدة او مضطربة •

يجب ـ اذن ـ أن نحسر البراقع عن وجوه الاشتراكيين ، لكي نردهم الى الأُصول التي اغترفوا منها ، مهما كان نوع نياتهم التي حملتهم على هذا الاغتراف ، ويجب أن نحرر اذهان الجماهير من المفاهيم التي اختلطت تعابيرها عليهم ، حتى ظنوا أن كل اصلاح اجتماعي ، هو ضرب من ضروب الاشتراكية ، ويجب أن نعلن بكل وضوح أن الاشتراكية ، ليست السبيل القويم لتحقيق العدل الاجتماعي بل يجب أن نوضح أيضا ، أن درب الاشتراكيين المعتدلين ذوي النيات الحسنة ، ليس هو وحده ـ على

الاقل ـ الدرب الوحيد لتحقيق العدالة الاجتماعية .

***

ولئن استطاع الاشتراكيون على اختلاف اتجاهاتهم أن يصلوا الى قلوب الجماهير عن طريق رفع ألوية العدالة الاجتماعية ، وأن ينجحوا في هذا السبيل نجاحا ملحوظا ، فهم قد سعوا أيضا للوصول الى قلوب جماهير المؤمنين بالاديان السماوية ، وأن يحققوا الكثير من النجاح لديهم ، وذلك عن طريق الايحاء لهم بأن الاشتراكية من الدين ، أو انها تعتمد في أصولها على الدين ، أو انها تستمد بعض مبادئها من الدين ، محاولين في ذلك أن لا ينكشفوا كما انكشف الشيوعيون الماديون، وأن لايتصدوا لسور الاديان السماوية المنيع ، الذي أنهزم أمامه الشيوعيون ، وهكذا رأينا بعض فلاسفة الغرب ومفكريه ، يعتمدون على هذا الايحاء أكبر اعتماد ، ونراهم يدخلون ، لا الى قلوب العامة وأنصاف المثقفين فحسب بل الى قلوب مفكرين مؤمنين بارزين ، عن طريق الاشادة باديانهم، وبما تحمله من تعاطف انساني اشتراكي كريم !

وتدفقت على الاديان السماوية كلها ، وعلى الدين الاسلامي بوجه خاص ، أقوال فلاسفة الغرب ومفكريه ، فبدأ التسلل الى جوهر العقيدة عن طريق هؤلاء ، كما بدأ الوهن في صفوف المفكرين المؤمنين عن طريق الاخذ بهذه

الاقوال ، فاذا بمبادىء الدين وتعاليم السماء ، تسلك على أيدي هؤلاء مسلكا جديدا ، واذا بتعاليم ماركس وانغلز ولينين ، موزعة بكؤوس موسى وعيسى ومحمد .

الخطيئة الكبرى التي وقع فيها المفكرون الاسلاميون، عن حسن نية لدى البعض ، وسوء نية لدى البعض الاخر ، أنهم كانوا سلبيين في تفهمهم لروح الدين ، ايجابيين في تقبلهم لمذاهب اليسار ، فانطلقوا دون ادراك لاغوار الخطر العميق ، ليقولوا ان الاسلام - مثلا - بطبعه وروحه دين اشتراكي ، مع أن الاسلام كان اسلاما ولم يكن شيئا آخر، كان نظاما تاما قائما بذاته ، له جذوره وقواعده وشموله ومنطلقاته ، وله قانونه ودستوره وشرعه وقرآنه ...

الاسلام ليس اشتراكية ، بل الاسلام اسلام ، وهو اسلام فقط !

ففي الاسلام ، عدالة اجتماعية شاملة ، لا حقد فيها ولا ضغينة ، ولا ظلم ولا استئثار ، ولا تسويد طبقة ولا تذويب طبقة !

وفي الاسلام حرب على الجشع والاحتكار واكتناز المال واستغلال الانسان لاخيه الانسان .

وفي الاسلام شمول اجتماعي روحي مادي متكامل ،

لا يدانيه مذهب مكتوب ، ولا يرقى الى مستواه نظام موضوع .

قلنا : ان الاشتراكيين سعوا للدخول الى قلوب جماهير المؤمنين عن طريق الاشادة بأديان السماء ، وخاصة الدين الاسلامي .

من هذا مثلا ما قاله الفيلسوف الالماني « كانت » (١٧٢٤ — ١٨٠٤) عن تاريخ الاشتراكية ، وكيف كان للاسلام الفضل في وضع جذورها فقال :

« تسربت الى اوربا ، بعد ظهور المدنية الاسلامية في الأندلس ، مبادىء وتعاليم عبرت اليها من جبال البيرينه واستقرت في أواسط فرنسا ، وتناول طلاب التجدد هذه التعاليم الاجتماعية البارغة التي انبثقت عن الحضارة العربية الباهرة ، وأخذوا في دراستها فأيقظت فيهم شعور الموجودية وظلت تختمر في الرؤوس ، حتى ظهرت بوادر الثورة الفرنسية الاولى ، واعقبتها الثانية ، وما هلت طلائع القرن التاسع عشر ، حتى ظهرت علائم الروح الاشتراكية في المجتمع الاوربي ، وكان قبل ذلك لا يفقه من امرها شيئا ، وبهذا بدت تحت سماء اوربا ، اول نزعة شريفة يتحلى بها الاسلام ، فأخذت بها وبأسلوبها الحنون الناعم لتخطو خطوتها الكبرى في سبيل تنظيم حياة شعوبها على أسس اقتصادية واجتماعية قويمة » .

وفي هذا أيضا يقـول المستشرق الانكليزي المعروف جيب ما يلي :

« ما زال الاسـلام يحفظ التوازن بين الاتجاهـين المتغالبين المتقابلين في دنيا الغرب ، فهو يساوي ويوائم بين الاشتراكية القومية الاوربية وبين شيوعية روسيا ، فلـم يهو بالجانب الاقتصادي من الحياة الى ذلك النطاق الضيق، الذي أصبح من مميزات اوربا في الوقت الحالي والدي هو اليوم من مميزات الاتحاد السوفياتي » •

ويقول أيضا ليو دوروش : « ولقد وجدت في الاسلام حل المشكلتين اللتين تشغلان العالـم طرا ، الاولى قـول القرآن : « انما المؤمنون اخـوة » فهـذا اجمل مبادىء الاشتراكية ، والثانية «فرض الزكاة على كل ذي مال» •

أما المستشرق البلجيكي « دوزي » فقد قـال : « ان المبادىء الاشتراكية هي من وضع الاسلام ، وانها لتعد وايم الحق الناحية الحساسة جدا في صميم قواعد الدين الاسلامي ولها جهات تنطوي على نبالة القصد لازالة ضغط الحاجـة الملحـة عن الفريق الرقيق الحال في مجتمعنا البشـري ، ويخال الي كلما توغلت في دراسة الاهداف الشريفة التـي نص عليها قرآن المسلمين فيما يتعلق بالحياة الاشتراكيـة ، انني ارى دموع محمد تنسكب على محياه الصوفي كلمـا

ورد اسم فقير على لسانه او تحدث اليه متحدث عن فواجع الفقر وآفاته » .

ولم يكن ما قاله الاشتراكيون عن المسيحية اقل مما قالوه عن الاسلام ، بل كان اكثر وأوسع ، بحيث لم يمض وقت طويل الا وكانت كلمة « الاشتراكية المسيحية » تلازم اسماء أحزاب سياسية كبيرة في مختلف البلدان الاوربية .

بهذا الاسلوب اجتاز الاشتراكيون مرحلة نجاح كبرى على طريق هدفهم الكبير ، وصدعوا السور المنيع الذي وقف حائلا بين الشيوعيين وجماعة المؤمنين ، ونفذوا الى الصفوف المؤمنة ليقولوا لها : ان الدين اشتراكي ، أو ان الاشتراكية من الدين » .

وكان من الطبيعي ، نتيجة لهذا النجاح الذي حققه الاشتراكيون ، أن تنقسم صفوف العقائديين المؤمنين ، وأن تضطرب خطوط سيرهم ، وأن يتوازع جهودهم الاصلاحية ، صراع جديد نشأ على الارض الاسلامية كلها ، صراع يدور حول القديم والجديد ، حول التطور والجمود ، حول التقدم والتأخر ، فنشأ عن هذا كله ، ايجابية ملحوظة لدى الفكر العربي الاسلامي تجاه المذاهب الجديدة ، والى جانبها سلبية ملحوظة أيضا عندهم ، نحو التمسك بالنظام الاسلامي كله ، فكان على خطوط الايجابية

والسلبية هـذه • نفر من المفكريـن والمثقفين المسلمين ، يستغل اندفاعهم حكام وسياسيون وزعماء ورواد منافـع وخادعون ومخدوعون ، بينما كان النظام الاسلامي فقيرا الى حد كبير ، لا بمفكريه ومثقفيه وسياسييه وحكامـه ، بل بالعناصر الجادة العاملة البناءة ، فقيرا بعناصر الاقـدام والشجاعة والجرأة ، فقيرا بحماسة جنود الصراع الفكري، فقيرا بدعم المؤمنين ورجال الحكم وزعماء السياسة •

وهكذا أسفر هذا كله ، عن انقلاب واضح في موازين النقاش الفكري ، كما قام فراغ ملحوظ في ميادين الصراع العقائدي ، ونجم عن هذا واقع مؤلم ، خلاصته أن القائلين بضرورة التمسـك بالنظام الاسـلامي المحقـق للعدالـه الاجتماعية الشاملة ، أصبحوا موصومين بتهمة «الرجعية» ، كما أصبح القائلون بتبني المذاهب الماركسية ، وبصبغها بأصباغ دينية عند الحاجة ، هـم « التقدميون » الذيـن يتحلون بجرأة القـول وشجاعة المبادرة ، وظـل الاخرون متوارين عن الميدان ، لا يقولون قولهم الا همسـا ، ولا يصـدرون عن عمل الا في ظروف الدفـاع التي تحتمهـا الاحـداث الطارئة ، كأنهـم يخشون تهمـة الرجعية ، أو كأنهم يطمعون بحيازة صفة التقدمية •

ولا أدري كيف استطـاع الاشتراكيون أن يسموا أنفسهـم « تقدميين » ، مع أن تاريخ الاشتراكية ، يعـود

ويرجع بالفكر الانساني الى مـا لا يقل عن آلفين وخمسماية سنة الى الوراء ، كما اوضحنا ذلك في فصل سابق وكيف التصقت تهمة « الرجعية » بالداعين الى النظام الاسلامي ، مع أن رسالـة الاسلام لم يمض على ظهورهـا سوى ألف واربعمايـة سنة . ولا تفسير لهـذا الا ان الاشتراكيـين يعتبرون كل نظام ظهر قبل كارل ماركس « رجعيا » .

كان لهذه العوامل كلها، تأثير كبير فيِنفوس الجماهير العربية ، وبصورة خاصة الاسلامية منهـا . فراحت تنظر لمبادىء الاشتراكية الجديدة نظرة اعجاب ورضى ، يضـاف الى هذا أن مرور العالم الاسلامي بفترة التخلف التي امتدت نحوا من ثلاثماية سنة ، والتي كانت دول الغرب خلالهـا تشق طريقها في مختلف مضامير التقدم والنمو والحيـاة ، قد جعلت من الشعـوب الاسلامية ، ومن شعوب العالـم العربي خاصة ، شعوبا متعطشة لتقبل كل ما هو جديـد ، متطلعة الى اقتباس كل ما يروده نحو التقدم ، ساعية الـى انتزاع الاستقلال لبلادها ، والى التحرر من حكم السيطرة الاجنبية التي كانت جاثمة على معظم بلاد المسلمين ، فنجم عن هذا توثب وتحفز كان يعتمل في النفوس اثناء الحـرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ــ ١٩٤٥) التي كان انتهاؤها ايذانا بانطلاق المـارد الاسلامي من سجنه ، مفتشـا عن دروب التقدم ساعيا نحو بناء نفسه وتشييد حضارته .

ومن سوء حظ العرب ، أن يكون قد رافق مطلع نهضتهم هذه ، قيام الصهيونية الباغية بانشاء « اسرائيل » على ارض فلسطين المقدسة ، نتيجة تآمر دولي كبير ، اشتركت بترتيبه واعداده واخراجه دول الغرب والشرق على السواء ، وفي مقدمتها الولايات المتحدة وروسيا وبريطانيا وفرنسا ، ثم ما لبثت هذه الدول أن فرضت على الدول العربية كل ما تملكه من عوامل الضغط المادية والمعنوية ، لضمان بقاء الدولة الصهيونية ، كما اتفقت هذه الدول على احتكار السلاح وحبسه عن العرب ليحولوا دون قيامهم بانتفاضة عربية مسلحة ، ضد الغزاة الصهيونيين •

في هذا الظرف ، وعندما تمكنت الدول الاجنبية من احكام طوق التضييق والضغط على الامة العربية ، انشقت دولة الاتحاد السوفياتي عن السياسة الغربية ، وانفردت عنها بمد شيء من بساط التقارب بينها وبين العرب ، وبدأ هذا ببيعهم سنة ١٩٥٥ السلاح الذي كان ممنوعا عليهم من دول الغرب ، فوجد العرب بهذا ، بارقة أمل طيبة ، قد تيسر لهم سبيل تحرير فلسطين واسترجاع الارض السليبة •

واستمر انفتاح الاتحاد السوفياتي على العرب ، عند كل ازمة تحتدم بين الدول العربية والدول الغربية ، وكان لهذا الانفتاح أثره ، في تنمية العلاقات السياسية والاقتصادية بين العرب والروس ، فنجم عن هذا نشاط

مذهبي عرف كيف يستفيد منه الاتحاد السوفياتي أبرع استفادة ، وكيف ينشر مبادئه « الاشتراكية » ضمن البلاد العربية !

وهكذا نرى في كل هذه العوامل التي اوردناها، مايجعل الشعوب العربية متعطشة لقبول مبادىء التجديد والتحرر والتقدم والانطلاق ، فكان هذا كله، وبسبب ما شرحناه من اسباب وعلل ، ميدانا رحبا لانتشار المذاهب الاشتراكية الجديدة في البلاد العربية والاسلامية .

لا نستطيع أن ننسى أيضا، أنمن جملة هذه العوامل المؤثرة ، ظهر عامل آخر ، هو عامل الاعجاب بدولة الاتحاد السوفياتي التي برهنت عن وحدة شعبها داخليا برهانا عميقا حين استماتت في مقارعة النازية الهتلرية حتى ساهمت مع دول الحلفاء بانتزاع النصر على المانيا وحليفتيها بالحرب الكونية الثانية ، وكذلك عامل الاعجاب الثاني بقوة وصمود جهاز الحكم الروسي الذي لم تبدأ زعزعته الا بعد موت ستالين عام ١٩٥٢ . ثم هنالك عامل الاعجاب الثالث ، الذي جاء نتيجة لتفوق الاتحاد السوفياتي على امريكا وحلفائها في ميدان التسابق في اكتشاف العلوم النووية واسرار الفضاء في فترة ١٩٥٧–١٩٦١، قبل ان يتدارك الاميركيون هذا التقصير .

على انقاض هذا الواقع المرير الذي كانت تعيشه شعوب العرب والاسلام قامت في بعض البلاد العربية ، انقلابات عسكرية كثيرة ، ما لبثت ان اتشحت بالوشاح الثوري ، ثم نادت بالتقدمية والاشتراكية ، فكان طبيعيا أن يساعدها نظام حكمها القاسي من جهة ، واستعداد الشعب لبدء مرحلة انطلاقه من جهة اخرى ، على الدعوة علانية للمذاهب الاشتراكية الجديدة، وكان طبيعيا أن يقبل الشعب على هذه المبادىء التي يعلنها كلام معسول ، وترافقها وعود بقيام فردوس مفقود ، خصوصا وان الساحة العقائدية المؤمنة قد خلت من ابطال يدافعون عنها ، بينما تطوع للتبشير بهذه المذاهب مفكرون ومثقفون خادعون او مخدوعون ممن يحملون صفة الاسلام ، او ممن يحسبون عليه من ابنائه •

ومرت فترة الاندفاع او التجربة ، فاذا بالواقع المرير، يبقى مريرا أو أكثر مرارة، واذا بتجارب الاشتراكية الثورية في البلاد العربية ، تنتقل من فشل الى فشل ، واذا بوعود الازدهار الاقتصادي والاجتماعي تبقى كلاما في الهواء ، تماما كما وقع في الدول الاشتراكية الكبرى، التي اضطرت نتيجة فشلها الصناعي والزراعي في الداخل ، وانقسامها العقائدي والفكري في الخارج ، الى الانكفاء عن مواقعها، والتخلي عن الكثير من مبادئها ، فرأى العمال والفلاحون

والكادحون أن احلام الوصول الى حياة أفضل قد تبخرت، ولم يبق غير الواقع المؤلم المرير .

كانت الجماهير العربية ، معذورة الى حد كبير ، في تقبل المذاهب الاشتراكية ، بسبب ما أوضحناه من عوامل قوية مؤثرة واذا كنا نطمع نحن العرب ، بالتحرر من اخطاء الطفرة وأوهامها ، وبالسير على دروب البناء السليم، فليس لنا من سبيل الا بالعودة الى الاسلام كنظام ، ففيه كل ما تتطلع اليه الانسانية ، من عدالة اجتماعية شاملة ، وفيه كل ما تتوق اليه من عوامل التقدم والتحرر والانطلاق .

نعود فنقول بالاسلام ، وبالاسلام وحده ، الاسلام الذي لا تصبغه اشتراكية ، ولا تطليه رأسمالية ، ولا ترتقي الى مستواه ديموقراطية !

ويسألونك عن « الاسلام » وعن شيء من نظامه الاجتماعي ، وما عساك تقول عن نظام كامل مستوف لكل ما تتطلبه شؤون الحياتين ، الأولى والآخرة ، في كتاب صغير ، او في فصل من كتاب ؟

حسبنا فقرات قصار ، تشتمل على بعض معاني العدالة الاجتماعية ، وتوضح بعض دروب العمل ، في بناء المجتمع الاسلامي القويم .

أول ما يفكر به المرء ، أو ما يتطلع اليه من تحقيق

العدالة الاجتماعية ، هو ان لا يكون هناك اغنياء متخمون، وفقراء جائعون •

ومن أجل تحقيق هذه الغايــة وضع الاسلام مبـدء رفيعا دقيق التنظيم ، غايته الحيلولة دون تضخــم ثروات الافراد ، مع توفير حاجات العيش الكريم لكل فرد •

هذا النظام هو نظام «الزكاة» ، ومقدارها ٢،٥ بالمئة، تؤخذ عن الأموال النقدية وعروض التجارة ، بينما تؤخـذ عن الزروع والثمار بنسبة العشر في الاراضي المروية بماء السماء والينابيع ، وبنسبة نصف العشر في الاراضي المروية بآلــة ونحوها •

وكلما حال الحول تجددت ضريبة الزكاة على مالــك النصاب • والنصاب هو عشرون مثقالا من الذهب أي مــا يعادل سبعة جنيهات استرلينية (او سبعين ليرة سورية) • ومعنى هذا أن اكتناز المــال أو خزنه في صناديقــه أصبح شيئا خطيرا على المكتنزين ، لان استيفاء ٢،٥ بالمئة في كل سنة من هذا المــال معناه ، تحول المال كله مــن صندوق المكتنز الى بيت مال المسلمين ، اي الى خزينة الدولــة في اقل من اربعين سنة • ومعنى هذا أيضا انه ليس من مصلحة أحد أن يكتنز المال خشية على نفاده بسبب ضريبة الزكاة ، بل من مصلحته أن يضعه في التداول وفي تمويل المشروعات،

لكي يستبقي لنفسه موارد تنميته ، وفي هذا مـا فيه مـن نفع اقتصادي عميق يفيد منه جميع افراد الامة ، كما ينسف بالتدريج صروح الثروات المتضخمة في حال تجميدها حتى يوصلها الى ما يشبه العدم .

وحين نعلم أن الزكاة لا تفرض على طبقة واحدة مـن الشعب بل على جميع الطبقات ، ابتداء من الفرد الذي يملك سبعة جنيهات ، فما فوق ، ادركنا عظم الحصيلة التي تعود الى الدولة من ضريبة الزكاة، كما ادركنا سعة معنى الرخاء، الذي يمكن أن يحيا في ظله مجتمع الزكاة .

ومما يفكر به المرء ، او يتطلع اليه من تحقيق العداله الاجتماعية ، هو أن يعرف نوع الصلة القائمة بين العامـل ورب العمل في الاسلام ، وفي هذا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم بشـأن رب العمل : « اخوانكم خـو لكم جعلهم الله تحت ايديكم » .

ويقول « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته » .

ويقول : « أعطوا الاجير أجره قبل أن يجف عرقه » .

ويقول : « ثلاثة انا خصمهم يوم القيامة ، ومنهم رجل استأجر أجيرا فلم يوفه أجره » .

ويقول : « ولا تكلفوهم ما لا يطيقون » . ثم يقول :

« فاذا كلفتموهم فاعينوهم » •••

وكأني به صلى الله عليه وسلم قد جمع كل مطالب العمال من ارباب العمل في هذه الكلمات القصار ، التي اثبتت حق العامل في أجره الكامل ، كما أثبتت له حق المساواة بجعله أخا لرب العمل في الكرامة الانسانية ، مع توفير الرعاية له تحت طائلة مسؤولية رب العمل ، فضلا عن عدم تكليفه بما لايطيقه أي زيادة عن ساعات العمل المحددة، واذا كلفه فعليه أن يعينه ، وقد يكون من عونه ، اعطاؤه اجر ساعات العمل الاضافية •

أما بشأن العامل ، فقد قال رسول الله عليه السلام : « ان اشرف الكسب ، كسب الرجل من يده » • وبهذا وضع الاسلام العمال والكسبة ، في أشرف مكان من أمكنة الكسب المادي ، كما جعلهم مسؤولين عن عملهم حين قال : « ان الله يحب من العامل اذا عمل أن يحسن » • وقال : « والخادم راع في مال سيده وهو مسؤول عن رعيته » •

ترى أي نظام عمالي يمكن أن يحتوي خيرا من هذه المبادىء الرفيعة لسن التشريعات التي تصون حقوق العامل ورب العمل ، من خلال صيانة مصلحة المجتمع كله •

ومن اصول العدالة الاجتماعية في الاسلام ، ما قرره الفقه الاسلامي من أن احتكار السلع وبيعها باسعار فاحشة حرام ، ولهذا كان للقاضي الحق في أن يلزم المحتكر

ببيع سلعته بربح معتدل ، فاذا أبى كان للقاضي أن يضع يده على السلعة وأن يبيعها بثمن عادل ، وفي هذا ما فيه من وضوح يؤدي الى القضاء على مبدأ الاحتكار لمصلحة عامة الشعب وباستعمال سلطان الدولة .

بل ان محمدا صلى الله عليه وسلم كان ينتزع الملكية من المالك ، احقاقا لحق ، او اقرارا لمصلحة عامة . من هذا ما جاء في حديث رواه « ابو داوود » ، عن بستان رجل من الأنصار كان فيه نخلات يملكها رجل اسمه « سمره بن جندب » . فكان جندب يدخل البستان بسبب النخلات فيؤذي الانصاري واهله . وحين شكاه للرسول ، قال الرسول لسمرة : بعه النخلات !

فأبى ، فقال له النبي : فاقتلعها .

فأبى ، فقال : فهبها له !

فأبى ، حينئذ قال له الرسول : « انت مضار » ، وقال للانصاري : « اذهب فاقلع نخله ! »

ومن باب « السياسة الشرعية » في الاسلام ، أن تفعل الدولة كل ما فيه مصلحة عامة للناس . ومن هذا أن رسول الله حمى ارضا يقال لها «النقيع» في المدينة لترعى فيها خيل المسلمين ، وأن عمر بن الخطاب حمى ارضا في «الربذة» لتكون مرعى لجميع المسلمين ، فجاء اهلها يقولون

له : يا أمير المؤمنين ، انها بلادنا قاتلنا عليها في الجاهلية ، واسلمنا عليها في الاسلام ، على م تحميها ؟

فاطرق عمر ثم قال : « المال مال الله ، والعباد عباد الله، والله لولا ما أحمل عليه في سبيل الله ما حميت من الارض شبرا في شبر » •

وواضح أن عمرا أعلن أنه ما كان لينتزع ملكية أرض من احد ولو كانت مساحتها شبرا في شبر ، لولا الضرورة، أي المصلحة العامة التي يحمله عليها الجهاد في سبيل الله ، وهكذا كانت المصلحة العامة مقدمة على المصلحة الخاصة في الاسلام ، بل هذا ما يمكن ان يسمى بصورة من صور « التأميم » في العصر الحديث قد سبق اليها الاسلام قبل ألف واربعماية سنة •

وفي ميدان الضمان الاجتماعي في حالات العجز أو المرض أو الشيخوخة وفي حالة اية حاجة كانت ، سن الاسلام من الشرائع والسنن ما لا يستطيع آن يدانيها بحسن تنظيمها ، وعظم نجاحها أي نظام آخر فهناك قوانين الوقف، التي كانت وستظل مفخرة المجتمع الاسلامي على مر العصور والازمان ، لانها كانت من الوفرة والضخامة والقوة وسعة الشمول ، بحيث لا يستطيع آن يستوعبها الا النظام الاسلامي •

وحسبنا أن نعلم بأن الوقف في الاسلام كان على قسمين : وقف ذري اي أهلي ، ويقصد به حفظ ذرية الواقف من الفقر والفاقة • ومن شروط صحته أن ينتهي الى جهة خير لا ينقطع ، عند انقراض الذرية ، ووقف خيري ، وهو ما كان لخير المسلمين عامة او لجهة من جهات خيرهم ومصلحتهم ، وهي كثيرة جدا •

وهكذا نشأت في المجتمع الاسلامي اوقاف خيرية كبيرة لبناء المدارس والانفاق عليها ، ولعمارة المساجد والسهر عليها ، وللمستشفيات ولفنادق المسافرين « الخانات » ، وللمكتبات العامة ، وللتكايا ، وللمجاهدين المرابطين على الثغور ، ولسلاح الجهاد ، وخيول المقاتلين ولاصلاح الجسور والطرقات وللمقابر ، وللانفاق على الاطفال اللقطاء ، وعلى سبل المياه في المدن وفي طرق الأسفار •

أما حق الملكية الفردية ، فقد كان نظاما مثاليا رائعا ، لا هو حق مطلق يملك فيه المرء كما يشاء ، ولا هو محرم معدوم يفقد المرء فيه كل ملك ، بل كان نظاما وسطا ، تتحقق فيه مصلحة المجتمع الاسلامي ، على اسمى ما يمكن من قواعد •

ان الملكية في الاسلام تنطلق في أصولها العميقة ، من الاية القرآنية الكريمة : « لله ملك السموات والارض »

و « لله مـا في السموات والارض » • ومعنى هـذا ان الانسان لا يملك شيئا بل الملك كله لله • وبعد ذلك صان الاسلام المجتمع عند تملك المال ، وحين جعل المال مال الله، جعل الانسان مستخلفا عليه بامانـة الله ، فقال تعالـى : « وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » •

ثم فرض على الناس عـدم البذخ والاسراف فقـال « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا » ، فاذا بذر أحد أو أسرف، أو اذا بدد الثروة على اهوائه وملذاته بما يأبـاه الشـرع والعقل وجب الحجر عليه لأنه « سفيه » • فقال تعـالى : « ولا تؤتوا السفهاء اموالكم التي جعل الله لكم قياما » •

وحـين قال « اموالكم » اعتبر أمـوال الفرد ، هي أموال المجتمع ، التي يجب أن تصان لمصلحة المجتمع ومعنى هذا أن الحائز على المال هو أشبه ما يكون بمؤتمن عليـه لمصلحة المجموع في حدود النصوص الشرعية •

ومع هذا فقـد اوجب الاسلام احترام الاستخـلاف واعتباره « ملكية خاصة » ما دام القائم عليها قائما باوامـر الله ولمصلحة المجتمع ، ومنع الاسلام على أحد أن يسلبهـا منه ، فقال تعالى : «ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل» •

وشرع الله سبحانه نظام الإرث الذي لا يسمو عليـه نظام آخر ، ولعل من خير ما فيه انه يفتت الثروات مهمـا

كانت كبيرة ، ويقسمها بين الورثـة الى ملكيات صغيرة ، يستحيل معها أن تبقى الملكيات طاغية على مصلحة المجموع، او مـوجبة لاجراءات تعسفية كتلك التي تقوم باجرائها المذاهب اليسارية الجديدة .

واما في مفهوم الحرية الانسانية ، فان شعار الخليفة الثاني عمر بـن الخطاب : « متى استعبدتـم الناس وقـد ولدتهم امهاتهم احرارا » ما زال الشعار الانساني الامثل ، حتى أن حقوق الانسان التي أقرتها هيئةالأمم المتحدة بعـد ألف واربعماية سنة قـد نصت على أن « الناس يولـدون أحرارا متساوين » . وكذلك كانت الكرامة الانسـانية ، كرامة عمل وتقوى ، لا كرامة حسب ونسـب او منصـب او جاه او عرق او لون : « ان اكرمكم عند الله اتقاكم » ، « ولا فضل لعربي على أعجمي الا بالتقوى » و « المسلمون سواسية كأسنان المشط ، غنيهم كفقيرهـم ، وكبيرهـم كصغيرهم، يسعى بذمتهم ادناهم وهم يد على من سواهم».

وأما مفهوم الدولة في الاسلام ، فقد طبقه محمد بـن عبد الله صلى الله عليه وسلم تطبيقا رائعا ، كما طبقه خلفاؤه من بعده ، عملا بالآيـة القرآنية الكريمة « وشاورهـم في الأمر، فاذا عزمت فتوكل على الله » . وقال تعالى : «وأمرهم شورى بينهم » يتولاه أهل الحل والعقد من جماعة الأمة ، على أن يظل الحاكم او الخليفة خاضعـا لدستور القرآن ،

فاذا ند عن الطريق القويم ، فانه « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » ، ومهما بلغ الحاكم من سطوة الحكم في الاسلام ، فانه يظل خاضعا لكلمة الحق ، حاملا على صيانة مصلحة المجموع •

وقف عمر بن الخطاب يوما على المنبر فخطب الناس ثم قال : « أيها الناس اذا رأيتم في اعوجاجا فقوموه ! » • فوقف أعرابي من عامة الناس وقال له : « والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا ! » • فلم يغضب الخليفة ولم ينقم ، بل رفع يديه الى السماء وقال : « الحمد لله الذي جعل في هذه الامة من يقوم اعوجاج عمر ! » •

ودخل رجل على المأمون بن هرون الرشيد ، وهو في ابهة دولته وعز سلطانه، وقال له : «اخبرني عن هذا المجلس الذي أنت قد جلسته، أباجتماع من المسلمين عليك، ورضى منك ، أم بالمغالبة لهم وبالقوة عليهم بسلطانك ؟ » •

وكذلك أيضا ، لم يغضب المأمون ، ولم يثر ، بل قال له : « لم أجلسه باجتماع منهم ، ولا بمغالبة لهم ، انما كان يتولى أمر المسلمين سلطان قبلي ، حمده المسلمون اما على رضى ، واما على كره ، فعقد لي ولآخر معي ولاية هذا الامر بعده في أعناق من حضر من المسلمين ، ثم مضى الذي عقد له معي على السبيل التي مضى عليها ، فلما صار الامر الي علمت أني احتاج الى اجتماع كلمة المسلمين في مشارق

الارض ومغاربها على الرضى ، ثم نظرت فرأيت اني متى تخليت اضطرب حبل الاسلام وتعطلت احكام الله سبحانه، ولم يؤخذ لمظلوم من ظالم ، فقمت بهذا الأمر حياطة للمسلمين ومجاهدة لعددهم ، الى أن تجتمع كلمتهم على رجل يتفقون على الرضى به ، فأسلم الامر اليه ، وأكون كرجل من المسلمين ، وانت أيها الرجل رسولي الى جماعة المسلمين فمتى اجتمعوا على رجل ورضوا به خرجت اليه من هذا الامر ! » .

فأي حاكم أو رئيس أو زعيم ، يصل الى منصب الحكم في دول المذاهب اليسارية الحديثة ، ثم يكون لديه من اتساع الصدر ورقة الحديث ، ومخاطبة الناس على قدر عقولهم ، أو بحسب خفايا نفوسهم ، كما صنع الحاكم المسلم في دولة الاسلام ؟

ولقد اعطى الاسلام للمواطن الفرد حرية اجتماعية مثالية ، يعرب فيها عن رأيه اعرابا كليا ، وذلك في قول النبي صلى الله عليه وسلم : « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان » .

وفي دولة الاسلام ، تصان الحرية الدينية ، صيانة مطلقة ، لا يطغى فيها دين على دين ، ولا مذهب على مذهب ، ولا طائفة على طائفة ، وقد قال الله لمحمد في

القرآن الكريم: «افأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين؟» • وقال له أيضا في آية اخرى : « فذكر ، انما انت مذكر ، لست عليهم بمسيطر » • وهكذا كان الشعار الاسلامي الخالد قول الله تعالى : « لا اكراه في الدين » •

ويذكر التاريخ أن غير المسلمين في عصور الدولة الاسلامية كانوا يتمتعون بحرية مطلقة • والامثلة كثيرة لا تعد ولا تحصى ، واذا كانت بعض البلاد الاسلامية قد شهدت بعض الفتن الطائفية الداخلية ، فان هذا لم يكن بسبب النظام الاسلامي نفسه ، وانما كان بفعل الجهل أو الخطأ ، أو الدسائس •

***

هذا هو الاسلام ، بل هذا شيء من مبادئه ونظمه وتعاليمه ، وهذا غيض من فيض ، من الاسس التي بنيت عليها العدالة الاجتماعية في الاسلام ، فلماذا يتطفل المسلمون على موائد المذاهب الاجنبية ، ولماذا يتسكعون على أبواب الاشتراكية أو الرأسمالية ؟

ليس لنا ــ نحن المسلمين ــ عربا وغير عرب ، الا هذا النظام الالهي المثالي الخالد • وجدير بنا بعد أن مررنا بفترة تجارب قاسية مريرة ، وبعد أن مر عالم اليوم بتجارب يسارية فاشلة ، ويمينية مضطربة ••• جدير بنا أن نعمل على كبح جماح التهور والتطرف ، وان نتجه من جديد الى

قواعدنا الاسلامية المتينة ، لكي نستأنف عهد البناء ، بعزم جديد ، وايمان جديد .

وقد يكون من اول ما يجب علينا أن تتجه اليه ، هو تحرير افهامنا من قول القائلين : ان الدين الاسلامي اشتراكي ، أو ان الاشتراكية من الدين ذلك لان الاسلام هو اسلام فقط ، وهو نظام تام كامل يضمن خير الحياة الدنيا ، ويهدي الى خير الحياة الاخرة .

وانا لنعجب أشد العجب كيف يقول بعض مفكري المسلمين في العصر الحاضر ، بأن الاسلام اشتراكي ، أو أن الاشتراكية من الدين ، أو أن في الاسلام أشتراكية ، وأمام انظارهم هذه الآية القرآنية الرائعة من سورة الزخرف: « أهم يقسمون رحمة ربك ، نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ، ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ، ورحمة ربك خير مما يجمعون » .

ولا ندري أيضا كيف يرضون بأن يضيفوا اسم الاشتراكية الى الاسلام ، والاشتراكية مهما كان فيها من خير ، فان فيها من الشر ما هو أكثر من الخير . كيف يرضون باضافتها للاسلام ، والله تعالى يقول في سورة المائدة : « قل لا يستوي الخبيث والطيب ، ولو أعجبك كثرة الخبيث ، فاتقوا الله ، يا أولي الالباب ، لعلكم تفلحون » ؟ .

كأني بهذا العصر ، وقد ظهرت فية فتنة الاشتراكية ، اشبه ما يكون بالعصر الذي ظهرت فيه فتنة القول بخلق القرآن ، أيام المأمون ، وما لقي فيه المؤمنون الصادقون من عنت وارهاق •

***

وحيال فتنة القول بالاشتراكية ، التي انتشرت في هذا الزمن في بلاد العرب والمسلمين ، لا يسعنا الا أن نتوجه الى ذوي النيات الحسنة من المفكرين والمثقفين المسلمين ، ومن رجال الحكم ، وقادة الامر ، وزعماء السياسة ، لنقول لهم:

١ ـ ان الرسول ترك الاشتراكية ولم يدع الناس اليها ، مع الجزم بعلمه بها عن طريق الوحي ، او عن طريق الخبر ، باعتبارها قد ظهرت الى الوجود على ألسنة الفلاسفة والمفكرين قبل ألف سنة من ظهور الاسلام •

٢ ـ ان الذين يدعون الى الاشتراكية يدعون الى ما لم يدع الله ورسوله اليه ، لا في القرآن الكريم ، ولا في احاديث النبي ، ولا في عمل صحابته •

٣ ـ ان « الشيخ الكبير » قد وضع حدا للفتنة ، بتلاوة الآية القرآنية الكريمة : « اليوم أكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا » •

٤ ــ ان الرسول « وقد بلغ ما انزل اليه من ربـه » قد وسعه أن يمسك عن دعوى الاشتراكية ، فلماذا لا يسع هؤلاء أن يمسكوا عنها ؟

فمع الشيخ الكبير ، ومع الواثق بالله العباسي : لا وسع الله علينـا ، ان لم يتسع لنا ما اتسع لرسول اللـه وأصحابه .

ثم الى الذين يقولون بأنهم يجارون العصر ، ويستعملون اسم الاشتراكية فقط ، ثم يطبقون مبادىء الاسلام وعدالته الاجتماعية بحيث يجعلونهـا كما يقولون : « اشتراكيـة اسلامية » أو « اشتراكية عربية » أو « اشتراكية تنبع مـن صميم حاجتنا ومجتمعنا وعقيدتنا » .

الى هؤلاء نقول كما قال رسول الله : « دع ما يريبك الى ما لا يريبك » واليهم نقول كما قال القرآن الكريم في سورة البقرة : « ولا تلبسوا الحق بالباطل ، وتكتموا الحق وانتم تعلمون » .. وكما قال تعالى في سورة آل عمران : «لم تلبسون الحق بالباطل، وتكتمون الحق وانتم تعلمون».

وبعد ،

نعود فنقول بالاسلام ... وبالاسلام وحده ، الاسلام الذي لا تصبغه اية صبغة مستوردة .

الاسلام الذي يوطد مفاهيم العدالة الاجتماعية ، على أسلم القواعد ، وأمتن الاسس ، وأنقى التعاليم ، الاسلام الذي يجعل من ضمير الفرد رقيبا حسيبا ، ووازعا أمينـــا ، وانسانا رفيعا، الاسلام بانسانيته وعدالته وشموله ووضوحه وديموقراطيته ، الاسلام الذي ينظم حياة الفرد على أقــوم مثال ، ويرفع دعائم المجتمع على مبادىء المادة والروح ، ويجعل للتسامح ولمكارم الاخلاق بشمولها غير المحدود ، المكان الانساني الاسمى .

الاسلام الذي قال لنا فيه رب العالمين : « اليوم أكملت لكم دينكم ، واتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الاسلام دينـــا » .

الاسلام ، الذي أوصانا رسول الله صلى الله عليـه وسلم ، بروحه ومبادئه وتعاليمه ، فقال في حجة الوداع ، لسنة عشر من الهجرة : « ايها الناس ، اسمعوا قولي ، فاني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعــد عامي هذا ، في مثل موقفي هذا . ايها الناس ، ان دماءكم وأموالكم حرام عليكم ، الى أن تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هــذا ، وانكم ستلقون ربكم فيسألكم عن اعمالكم . ألا .. هــل بلغت . اللهم فاشهد ... » .

الفهرست

انتهى طبع هذا الكتاب في
اليوم الاول من كانون الثاني
(ينـاير) ١٩٦٦ على مطـابع
مؤسسة الانتـاج الطباعي في
بيروت •